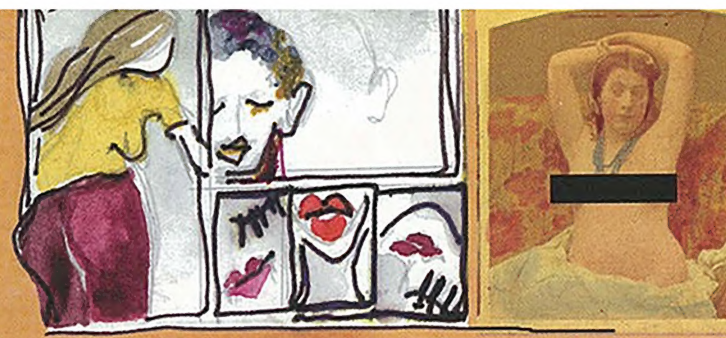


رواية



# برج العذراء

إبراهيم عبد المجيد




دار الآداب

ابراهيم عبد المجيد

# برج العذراء

رواية

دار الآداب - بيروت

# برج العذراء

ابراهيم عبد المجيد/روائيّ مصريّ

الطبعة الأولى عام 2003



دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

## ـ ١ ـ

أراد الدخول بالسيّارة في الطريق الزراعيّ، فوجد نفسه في الطريق الصحراويّ. .

الوقت يقترب من المساء. الجوّ حارّ خانق. درجة الرطوبة لا تطاق. لقد أمضى شهراً في المستشفى في جوّ بارد. فمن أين تأتي هذه الحرارة والوقت شتاء! هل كان شهراً أم فصلاً كاملاً من فصول العام؟ ثم لماذا هذا الهياج الجنسيّ غير المحتمل الذي ينتابه فجأةً، وهو الذي أمضى الشهر يبكي في صمت موت زوجته وابنته في الحادث. قال له الأطباء والممرضات «لقد عدت إلى الحياة بمعجزة طبيّة». . وكان يودّ لو عادت زوجته وابنته بمعجزة إلهيّة.

إنّه يقود السيّارة بجنون الآن، ليس سعيداً أبداً، لكنّه ذاهب إلى هدف بعيد لا يراه، يريد أن يدوس عليه ويحطّمه.

إذن هل يلتقط الشرطيّ الذي يقف بعيداً وحيداً ظاهراً تحت الضوء؟

كانت قدمه قد ارتفعت عن دوّاسة البنزين، وراحت سرعة السيّارة تتباطأ. إنّه يتوقّف الآن للشرطيّ ويفتح له الباب المقابل. لقد بدا له حقًّا شخصاً مسكيناً وسط كلّ هذا الفراغ من الرمال والضوء. كان يعرف أنّه لن يجد امرأة أبداً على هذا الطريق، وأنّ الهياج الجنسيّ سوف تخفت حدّته ما إن يتحدّث مع أحد، حتّى لو كان شرطيًّا، لكن ما إن جلس الشرطيّ على المقعد المجاور له حتّى بدا له شكله مزريًّا، ملابسه ليست نظيفة، ووجهه متجهّم. وقبل أن تستيقظ كراهيّته للشرطة، انفجر الشرطيّ في البكاء. لقد بدا له أصغر حجماً مما كان يراه في الطريق، وبدا له يعاني من أنيميا مزمنة.

ارتبك من هذا البكاء الذي بدأ في الحال يحرّك مشاعره. كانت سرعته، في قيادة السيّارة، هروباً أيضاً من بكاء يكاد يغرقه... هكذا يكتشف الآن..

ـ أعذرني يا أستاذ. هذه الأغنيّة تؤثّر فيّ جدًّا.

كان راديو السيارة يبثّ أغنيّة لفايزة أحمد. لم يكن قد انتبه إلى أنّه أشعل الراديو، ولا لجمال الأغنيّة التي كان يحبّها جدًّا من زمان...

صمتا لحظات، مسح فيها الشرطيّ عينيه براحتيه. قدَّم له منديلاً ورقيًّا من صندوق المناديل الموضوع أمامه أعلى تابلوه السيّارة.

يا لولي يا لولي

فصوصك قالوا لي

تشوفم جمالي

ولاّ توصلوا لي

ـ كانت زوجتي تغنِّيها لإبنتي كلَّما بكت، كانت دموعها الصغيرة مثل حبَّات اللولي يا أستاذ...

لم يعرف بماذا يجيبه.. استمرَّ يقود السيّارة على مهل. فكَّر أن يطفىء الراديو، لكنَّه اكتفى بخفض صوته.

بعد لحظات، قال:

ـ أنت رجل بوليس قويّ. رجال البوليس لا يبكون، ثم إنّ ابنتك ستكبر وتكفّ عن البكاء.

عاد الشرطيّ يبكي بلا صوت، وقال:

ـ أقول لك كانت زوجتي تغنِّيها لابنتي..

ـ آه فهمت. هل تركتك زوجتك؟

ـ لا . إبنتي . . ماتت الأسبوع الماضي .

أغمض عينيه لحظات . . الشرطيّ يفتح له باب الحزن على ابنته وزوجته . هل يطلب منه أن يسكت . لو بكى ستقع كارثة وهو يقود السيّارة .

ـ لم تكن ابنتي مريضة . لم يحدث لها أيّ حادث . كنت أنا وأمّها نتفرَّج على التلفزيون . . وجاءت هي من غرفتها تقول إنّها تخاف أن تنام . لماذا؟ قالت « خايفة يا ماما لما أنام أموت » أخذتها أمُّها في حضنها وأعادتها إلى الحجرة بعد أن شجَّعتها على النوم، أنامتها على سريرها وعادت، وأنا كنت مندهشًا جدًّا من كلام البنت . بعد السهرة ذهبت إلى حجرتها لأقبِّلها وهي نائمة . لقد تعوَّدت أن أفعل ذلك . كانت تشعر بي وتستيقظ، وتتعلَّق في رقبتي يا أستاذ . وجدتها باردة جدًّا . لم تستيقظ ولم تتعلَّق في رقبتي . . .

ـ أرجوك ! . .

هتف بصوت مخنوق واشتعل وجهه وهو يقاوم البكاء :

ـ لا تلمني يا أستاذ . لا يعرف ألم الآباء إلا الآباء . . هل ضايقتك ؟

كانت هناك كافيتريا تظهر بعيداً على الطريق . قرر التوقُّف عندها . لكنَّه تجاوزها، وراح يقود السيّارة صامتًا . لقد أطفأ

الراديو أيضًا، وطال الصمت، ولاحظ أنّه يسرع بالسيّارة من جديد. وفاجأه الشرطيّ بسؤال:

ـ هل سبق لك أن عملت بالشرطة؟

ـ أنا؟.. لا.

ـ الحمد لله. أنا أيضًا سوف أترك الشرطة. من اليوم لن أعود إلى العمل. ليس لأنّ ابنتي ماتت. لا. هذه أعمار. في النهاية دائمًا نقول ذلك. لكنّ الضابط الذي يرأسني ضربني أمس أمام زملائي.

كانت هناك كافيتريا أخرى قد ظهرت له، فاتّجه إليها. قال مجاهداً أن يبتسم:

ـ ما رأيك أن تشرب كوبًا من الشاي معي وتنسى كلّ ما قلته؟

ـ كتّر خيرك يا أستاذ.

في الكافيتريا شرب الشرطيّ كوب الشاي بسرعة وتركه ليذهب إلى دورة المياه. مضى وقت طويل ولم يعد. لم يجد مفرًّا من مواصلة الطريق وحده. أشعل الراديو من جديد، وتوقّف بالمؤشر على محطة الأغنيات. إنّه يستمتع بالأغنيات الشجيّة الآن. هذه علامات صحة نفسية حقيقية. الحمد لله. ضرب المقود بيده. إنطلق يا رجل. ها هو الهواء يهبّ عليك من

الصحراء محمَّلاً بالبهجة والانتعاش. ها هو الطريق مفتوحًا على السماء «يا أولاد الكلب، يا جزم.. هاأنذا راشد رشاد عاقل قوي. يا أولاد القحبة تريدون أن تطفشونا من بلادنا»، ولم يكن يعرف لمن يتوجَّه بهذا الكلام. وحتّى بعد أن نزل الليل على الصحراء، صار يسابق كلّ السيارات، رغم أنّ سيّارته لم تعد في قوَّتها قبل الحادث، إنّه لا يذكر حتّى من قام بإصلاح السيّارة بعد الحادث، وعلى آخر الطريق، في اللَّحظة التي كاد فيها أن يدخل طريق المدينة الذي سيفضي به إلى وسطها، لاحظ أنَّ السرعة لا تزال تزيد على المائة كيلو متر في الساعة، رفع قدمه عن دوّاسة البنزين، لكنّ الوقت لم يكن كافيًا للإبطاء. إندفع شاب خارجًا من شارع جانبي يعبر الطريق فجأة، لتصطدم به السيّارة صدمة قوية أحدثت صوتًا رجّ الهواء، وطار الشخص لأكثر من عشرة أمتار أمامه.

..........

ـ خذ الطريق الدائريّ بسرعة...

صاح شخص من الذين تجمَّعوا حوله وحول السيارة وحول الضحيّة الذي كان لا يزال فيه بعض حياة.

ـ الطريق الدائريّ يصل بك إلى المستشفى المركزيّ بسرعة. انظر إلى الطريق النازل إلى المدينة. مزدحم جدًّا.. لن تصل قبل أن يموت الشاب.

كان هو يقف متخاذلاً لا يقدر على فعل شيء، لا يقدر حتّى على الكلام. وحمل الناس الشاب الضحية إلى المقعد الخلفيّ في سيّارته. دخل الشخص الذي اقترح الطريق الدائريّ وجلس على المقعد الأمامي، وراح هو يقود السيّارة ذاهلاً غير مصدِّق لما جرى.

كان المصاب لا يزال يتنفَّس، لكنَّ وجهه بدأ يزداد اصفراراً، ويزرقّ لدرجة مرعبة.. وكان هو يراه في المرآة المعلَّقة أمامه.

ـ نزيف داخليّ مع تحطُّم عدد كبير من أضلاعه وخلع في فخذه الأيسر وكسر في الركبتين وسحجات في الوجه والجسم...

قال الشخص الذي صعد إلى السيّارة معه.

سأله بصوت خافت:

ـ كيف عرفت؟

ـ عندي خبرة، وحادث مثل هذا لن يؤدّي إلى أقلّ من ذلك.

لم يردّ. راح يستمع إلى إرشادات الرجل حتّى وصلت السيّارة إلى المستشفى. دخلا بالمصاب إلى قسم الحوادث بعد أن حمله تومرجيّان على عربة متحرّكة.

ـ الدكتور قادم حالاً . .

قال التومرجيّان وهما يمدّان كفّيهما إليه. وضع في كلّ كفّ خمسة جنيهات. لم يكن معه عملة أقل من ذلك. اندهش الرجل الذي يصحبه وقال:

ـ هكذا ستنفق كلّ ما معك. جنيه لكلّ تومرجيّ، يكفي . .

أخرج من جيبه ورقة فئة المائة جنيه وقدّمها إليه.

ـ حاول من فضلك أن تجد فكّة، جنيهات إذا أمكن.

كانا يقفان وسط العنبر الكبير. المصابون حولهما مسجّون فوق العربات ذات العجلات، مغطّون بملاءات بيضاء قذرة. هذه مشرحة وليس قسم استقبال للحوادث. قال في نفسه وهو يرى الصمت مطبقًا على المكان. لقد صار وحده الآن، إذ اختفى الرجل الذي أخذ المائة جنيه.

نصف ساعة مضت ولا أحد. لكنَّ الممرضة ظهرت فشبّ على قدميه وتنهّد . . لاحظ وهي تقترب أنَّها ملفوفة القوام وأنَّ زيّها الأبيض نظيف، وأنَّ فخذيها متماسكان بشكل مثير. قالت وهي تضحك:

ـ معقول واحد حيّ في قسم الحوادث؟!

قال في إشفاق وهو يشير إلى الضحيّة:

ـ أنا حضرت مع المصاب، إنَّه ينزف بشكل خطير. أرجوكِ تستدعي الطبيب.

ردَّت ساخرة:

ـ وكيف عرفت أنَّه ينزف؟.. دكتور حضرتك؟!

وتركته وانصرفت

ـ يا سستر. ياست...

التفتت إليه وقالت بحدَّة.

ـ وبعدين معاك. إمسك أعصابك. لو كلّ مصائب الناس خافت عليه هكذا ماذا سيفعل عزرائيل!، يقعد دون عمل!

قبل أن تصل دهشته إلى مداها لاحظ أنَّ يداً شديدة البياض والزرقة، تظهر عروقها بشكل بارز، تخرج من تحت ملاءة وتعبث في مؤخرتها، فالتفتت إلى صاحب اليد مندهشة، وقالت:

ـ اللَّه. أنت رجعت للدنيا؟

لكنّ صاحب اليد شخر شخرة قصيرة وتهدَّلت ذراعه بعدها، فقالت ساخرة:

ـ يعني كنت ح تعيش بقلّة الأدب! أديك قليت أدبك وبرضه مت.. ياتكم القرف.

واختفت بسرعة، بينما ظلّ هو واقفًا في حالة من البلاهة تكفي للدنيا كلّها. انتبه إلى جاويش يقف أمامه، يسأله:

ـ هل أنت الذي قتلت هذا الشابّ؟

ـ أنا صدمته. هل مات؟

ابتسم الجاويش، وقال:

ـ ألا ترى؟

نظر إلى وجه الشاب فوجد عينيه شاخصتين إلى الأبديّة وأنّ فمه مفتوح على الصمت..

ـ لابدّ من تحويلك إلى قسم الشرطة.

قال الجاويش ذلك، ومدّ إليه يده بالقيد الحديديّ فمدَّ هو بدوره يده إليه.

...........

كان يقود السيّارة وهو يفكِّر كيف صار قاتلاً حقيقيًّا، وكيف أنَّه ذاهب إلى قسم الشرطة يواجه تهمة حقيقية بالقتل. هل سبق له وهرب من هذه التهمة؟هل حقًّا قتل من قبل؟ هي السيّارة المشؤومة التي انقلبت به هو وزوجته وابنته فماتتا. ها هو

شخص ثالث يموت. ما كان عليه أبداً أن يصلح السيّارة. لو أنَّه تركها في مدينته الساحلية ووصل إلى العاصمة بالقطار. لن يركب هذه السيَّارة بعد اليوم. المهم الآن أن يخرج من هذه الحفرة التي تبدو بلا قرار...

ـ أنا لا أعرف إلى أيّ نقطة بوليس أذهب!

ـ أنا سأرشدك.

لدهشته كانت كلّ المصابيح في الشوارع مضاءة، والمدينة تبدو في حالة فرح. فكَّر لو أنَّ سالم سليمان هو الذي يكتب عن الحادثة الآن، لقال: «ظهرت الشوارع معتَّمة سوداء في عينيه مقبضة» لكنَّه لن يكتب حكايته الآن. إنَّه متعب.

ـ هل قسم الشرطة بعيد؟

ـ لا. لكنّي جائع. ألست جائعاً؟

اندهش من رغبة الجاويش في الأكل. وعاد الجاويش يقول:

ـ الدنيا برد، وعليك أن تأكل ما استطعت لأنَّك ستمضي الليلة في التخشيبة حتّى تعرض على النيابة في الصباح، ولن تجد طول الليلة شيئًا تأكله..

كيف حقًّا صار الجوّ بارداً؟ لقد كان دائمًا بارداً. الحرارة التي شعر بها وهو يغادر مدينته الساحلية كانت شيئًا طارئًا. لم تكن حقيقية. واستمرَّ الجاويش يتكلَّم..

ـ ستفرج عنك النيابة في الصباح بالضمان الشخصيّ، أو بكفالة ماليّة بسيطة ثمَّ يتحوَّل الأمر إلى قضية، وحتّى يحين موعد نظر القضية في المحكمة تكون وصلت إلى تسوية مع أهل القتيل، تدفع لهم تعويضًا مناسبًا مثلاً.

ـ لم يكن في حاجة إلى أن يسمع شيئًا الآن. النوم هو ما يريد ولا شيء آخر. لكنَّ الجاويش هتف وهو يحرِّك أنفه.

ـ اللَّه.! رائحة كباب. انتظر، أرجوك...

كان هناك حاتي قريب توقَّف أمامه وسرعان ما دخلا إلى المحل..

ما إن أقبل الجرسون بالكباب حتّى راح الجاويش يأكل بسرعة بينما هو اكتفى بالفرجة عليه. النوم هو ما يريده. هكذا فكَّر مرّة ثانية.

انتهى الجاويش من تناول الطعام ثم وقف يصلِّي على الأرض في الركن القريب.أطال الصلاة أكثر مما يتوقَّع.

انتهى، وقال:

ـ لم أصلِّ المغرب ولا العشاء، صلَّيتهما معًا. شغل كتير يا أستاذ!

تقريبًا لم يكن يسمع.. كاد ينام وهما خارجان. لقد أعطى الجرسون ورقة فئة الخمسين جنيهًا ولم يفكِّر في أن يأخذ

الباقي، وحين رأى الجاويش هو الذي يأخذ الباقي ويضعه في جيبه لم يعترض. و قال الجاويش:

ـ لو تركت بقشيشًا في كلّ مكان لن تجد ثمنًا لطعامك أو شرابك، ثم إنّك ستدفع كثيرًا في قسم البوليس. إنتبه..

تذكّر الرجل الذي ذهب يفكّ المائة جنيه، وكيف قال له ذلك أيضًا، وسأله الجاويش:

ـ ألم يكن معك شاهد على الحادث؟

أجاب في يأس:

ـ كان معي، لكنّه هرب.

ـ كان سيفيدك جدًّا. واضح أنّه ابن جزمة جبان..

ـ يبدو ذلك..

قال بصوت خافت ومتعب: في قسم الشرطة سيجد أرضًا لينام فوقها. هذا هو المهم الآن.

أمام القسم، سأله الجاويش من جديد:

ـ ألا تعرف أحدًا هنا؟

ـ أعرف.

ـ إذن اتّصل به بسرعة ليأتي يأخذ من السيّارة كلّ ما يمكن حمله، الراديو والكاسيت والبطارية، والعجلة الأحتياطيّة

والطفَّاية والفوانيس وغيرها. أجل. قل له أن يحضر ميكانيكيّاً معه أو كهربائيّ سيّارات. أجل. السيّارة ستصادر حتّى يتمّ فحصها في المرور، وخلال ذلك ستتمّ سرقة كل شيء. صدقني.

لم يهتمّ. لقد كره السيّارة!

. . . . . . . . . .

قسم البوليس مبنى عريض قصير يتصدَّر الشارع. الشارع واسع لكنَّه ينتهي بالقسم يسدّه تمامًا. على جانبي واجهة القسم شجرتان عاليتان يابستان، خلفهما نوافذ مغلقة. على باب القسم يقف مخبر له شارب كثّ طويل يسأل كلّ داخل عن وجهته ويتحقَّق من شخصيَّته. ما إن رأى المخبر الجاويش حتّى ابتسم، فقال الجاويش:

ـ وسِّع يا حمار.

ضحك المخبر وتراجع خطوة ثم مدَّ يده طالبًا البقشيش. قال الجاويش:

ـ لا تعطه أكثر من جنيه.

أعطاه ورقة فئة الخمسة جنيهات، تذكَّر الرجل الذي لم يعد بالمائة جنيه مرَّة أخرى. دخل مع الجاويش من البوّابة الواسعة. سمع الجاويش يقول للمخبر..

ـ ليست لروح أمّك كلّها.

كانت دهشته كبيرة للغة التي يتحدَّث بها الجاويش، لكنَّه أحسَّ بشيء من القوّة يدبّ في روحه، فأسرع وراء الجاويش الذي كان قد أسرع يسبقه.

الطرقة التي يسرعان فيها طويلة ضيِّقة، وسخة، نورها أصفر ضعيف، يهرول بها عساكر ومخبرون وناس عاديّون ومجرمون مقيَّدون بالحديد يسوقهم عساكر يمسك كلّ منهم بخيزرانة سميكة أو جنزير حديد كان في الأصل مخصصًا للدراجات. وصلا إلى باب غرفة المأمور الذي كان يقف أمامه جاويش آخر أصغر حجمًا.

تحدَّث الجاويشان لحظات، ثم قال الذي معه وهو يشير إلى زميله:

ـ سوف يدخلك إلى المأمور.

ومدّ له يده فأخرج من جيبه ورقة مالية فئة العشرة جنيهات أعطاها له. نظر إليها الجاويش وابتسم ثم هزّ رأسه ومضى. كان الجاويش الآخر يسدّ الباب ويبتسم فدسّ في يده خمسة جنيهات فاتّسعت ابتسامة الجاويش وأوسع له طريقًا للدخول. ما إن دخل حتّى جلس على أحد المقعدين الأماميَّين لمكتب المأمور الذي كان أحمر الوجه جدًّا، ورأى جوار الحائط

كنبة طويلة من الجلد الجديد اللامع، ورأى أيضًا الجاويش الذي كان بالباب يتقدَّم بعدَّة أوراق للمأمور ويؤدِّي التحية ويتكلَّم.

ـ محضر المتَّهم يا باشا..

نظر المأمور إلى المحضر بلا اكتراث، ودق التليفون أمامه فرفع السماعة ولم يردّ للحظات كان واضحًا فيها أنّه يستمع إلى الطرف الآخر ويبتسم، ثم قال:

ـ حاضر يا باشا سنقوم باللازم.

أعاد السماعة إلى مكانها وابتسم، وقال:

ـ هل ضايقك أحد يا سالم بك؟

انفتحت عينيه على اتِّساعهما. إنَّه يناديه بسالم. يا إلهي. ولما بدا مرتبكًا نظر المأمور إلى أوراق المحضر مرة أخرى بسرعة وذكاء، ثم قال:

ـ رغم أنَّ المحضر الذي حرِّر لك هو باسم راشد رشاد. إذن سالم سليمان هو اسم الشهرة فقط. هذا طبيعيّ في مهنتكم. أليس كذلك؟

لم يردّ. إنَّه حقًّا يحمل صوت سالم سليمان الأنثويّ منذ عاد من البلدة الصحراوية القريبة. لقد كانت زوجته مندهشة جدًّا من صوته الذي تغيَّر فجأةً، وكان كلّ من يسمعه يندهش من هذا الصوت الأنثويّ، لكن لا أحد يعرف أنَّه صوت سالم

سليمان، ولا يعرف أحد بالطبع كيف انتقل إليه هذا الصوت. وسمع المأمور يقول:

ـ أنت طبعًا وقّعت على المحضر باسمك الموجود في بطاقتك العائلية...

كاد يقول له «الشخصية» فهو رغم زواجه لم يغيِّر بطاقته، لكنّه كان مشغولاً بالتفكير في هذا المحضر كيف ومتى تمّ تحريره له، وهل وقَّع عليه حقًّا؟ محضر تحقيق حادثة، أمر عاديّ لا يستحقّ التزوير أو إجبار أحد على التوقيع عليه، فحوادث الطرق ليست عملاً سياسيًّا، ولا يمكن إنكارها. إذن لابدّ أن أحدًا حرَّر له هذا المحضر واستجوبه من قبل، ومن المؤكَّد أنَّه هو الذي وقع عليه. ليس مهمًا أن يعرف متى ولا كيف، فالمأمور يقرأ اسمه الحقيقيّ راشد رشاد. لكن لماذا ناداه بسالم سليمان؟ هل كان يعرف صوت سالم، هل قابله من قبل؟ وإذا كان يعرف فهل نسي صورته، أم أنَّه هو راشد رشاد، صار الآن يحمل وجه سالم سليمان أيضًا؟

هكذا فكَّر فجأة.. فلقد كانت آخر مرَّة ينظر فيها في المرآة في صباح اليوم. وقال المأمور بدماثة:

ـ لا تقلق. سأوصي الضابط النوبتجي أن لا يدخلك إلى التخشيبة، بل يخصِّص لك مكانًا إلى جواره حتّى الصباح. أنا للأسف مضطر للانصراف بعد قليل..

أراد أن يسأله من الذي كان يتحدث إليه بالتليفون وقت دخوله. وهل للذي تحدَّث علاقة بأزمته، هل يتابعه أحد ويعرف أنَّه الآن متورِّط في مأساة؟

لكن دخلت امرأة ملفوفة في ملاءة سرير كاروهات، وهي ترتعش من الغيظ، وخلفها رجل في نشوة المنتصر يمسك بذراع شابّ عاري ملفوف أيضًا نصفه الأسفل في ملاءة ملوَّنة وخلفهم مخبر ضخم. نظر المأمور إليهم لحظة وضع بعدها رأسه بين كفَّيه لحظات ثم رفعها، وقال للمخبر في نبرة يائسة:

ـ خدهم على الحجز. المرأة مع الشراميط، وعشيقها مع الخولات، أما هذا العرص فاتركوه قليلاً معنا.

بهدوء وقف المأمور، وفي الوقت الذي خرج الآخرون دار هو خارجًا من خلف مكتبه، واتّجه صامتًا إلى الزوج الذي بان عليه الذعر وتراجع إلى الحائط. صوَّب إليه المأمور نظرة نارية، وقال بغيظ مكتوم:

ـ طبعًا أنت فرحان لأنَّك قبضت على زوجتك في حالة تلبُّس.

لم يردّ الزوج. فجأةً صفعه المأمور صفعة مدوية ارتمى الرجل على أثرها في الركن البعيد، واحمرَّ وجه المأمور أكثر وهو يقول له:

ـ فالح يا روح أمّك.

ثم نادى الجاويش الذي يقف خارج الباب فدخل مسرعًا فصرخ فيه:

ـ خذ ابن القحبة هذا واعمل له المحضر الذي يريده والباقي أنت تعرفه.

ظهر على الفور ثلاثة مخبرين سحبوا الزوج من يديه وقفاه وهو مذعور بينهم مثل أرنب حقيقيّ. نظر المأمور إليه وقال:

ـ هذه ثالث مرَّة يا سالم بك، وفي كلّ مرة يأتي بزوجة جديدة. لما هو مش قادر على النسوان ليه يتجوَّز!؟

فجأةً اندفع أحد المخبرين داخلاً. أدّى التحية بسرعة وهتف.

ـ نعمل اللازم مع الزوج يا باشا.

صرخ فيه المأمور:

ـ أُمّال أنت بتشتغل إيه هنا؟ عمالين نعلف أمك ونديك بدلات، ونازل رشوة من خلق الله وجاي تسألني يا ابن الـ...

وصل انفعال السيد المأمور إلى غايته، حتّى بدا سيصاب بأزمة قلبية حقيقية، لكنَّه سرعان ما انبسطت أساريره وقال:

ـ شغلانة تقصّر العمر يا سالم بك. لا تؤاخذني. أنا واللّه لست كما رأيتني الآن.. أنا بني آدم مثلك، لكنّي لم أعد أستطيع التحمُّل.

في الحقيقة لم يكن يسمع، بل تقريبًا لم يكن يراه. ساد صمت طويل.. دخل خلاله الضابط النوبتجي الذي صافح المأمور. كان ضابطًا صغيرًا برتبة صغيرة. وخرج الاثنان معًا لحظات ظلّ هو فيها جالسًا لا يدرك أنَّه جالس، ثم عاد الرائد مبتسمًا وقال له:

ـ تعال معي.

خرجا. مشيا في الطرقة الطويلة من جديد. أسلمتهما إلى طرقة جانبية أطول ونورها أضعف. لقد ميّز الآن أنَّ وسط القسم فناءً كبيرًا تدور حوله الطرقة. لكنَّ الفناء كان خاليًا ومظلمًا. لم يكن فيه ثمة شيء غير مقعد وحيد في منتصفه، كان يبدو شاذًا بحقّ وسط الظلام والفراغ.

كان الضابط الشابّ يسبقه مسرعًا، وخلفهما عدد من المخبرين والعساكر. اتَّضح له وهو يتلفَّت يمينًا ويسارًا أنَّ القسم كبير حقًّا، ومكوَّن من عدَّة أدوار؛ ولأنَّه كان يرى بين الحين والحين فتحات جانبية بها سلالم هابطة، أدرك أنّ هناك أكثر من بدروم أيضًا. اقترب منه أحد المخبرين هامسًا:

ـ ألن تأكل؟

ولم يمهله وقتًا ليجيب، أردف:

ـ لازم تاكل. جوارنا محلّ كباب محترم..

أخرج من جيبه عشرين جنيهًا، فقال المخبر هامسًا من جديد:

ـ نصف كيلو كباب!؟ أنت محتاج «اتنين كيلو» على الأقلّ.

وبسرعة أعاد إليه العشرين جنيهًا فأخرج بدوره ورقة ظهر له أنَّها فئة المائة جنيه، وقبل أن يتراجع خطفها المخبر بمهارة وتوقَّف عن المشي معهم!

في نهاية الطرقة كانت هناك غرفة صغيرة دخلها الضابط الشابّ، وفوجىء هو بأحد المخبرين يمسكه من ذراعه ويأمره بالتوقُّف قليلاً..

تناهت إليهم بعد لحظة أصوات ضرب وشتائم وجري، وراح المخبر والذين معه يكتمون ضحكاتهم، ثم خرج رجل عاري الصدر جاريًا وخلفه خرج شابّ مذعور يرتدي جلبابًا قذرًا ويجري أيضًا. بعدها خرج الضابط ثائرًا في وجه العساكر والمخبرين ويصرخ:

ـ في مكتبي يا أولاد الوسخة! من الذي سمح لهما بالدخول إلى مكتبي؟ من ابن القحبة الذي أخرجهما من التخشيبة؟

لم يُفهم بالضبط ماذا كان يحدث بحجرة الضابط، لكنَّه جلس أمام الضابط الشابّ الذي بدا مهمومًا جدًّا صامتًا مغمض العينين ينفث غيظه بهدوء. لم يدخل معهما أحد من المخبرين أو العساكر ـ لاحظ ذلك واندهش له.

ونظر إليه الضابط بهدوء وسأله:

ـ ما هو عمل حضرتك بالضبط؟

ـ كاتب.

ـ ماذا تقصد بكاتب؟

ـ أديب.

ـ آه. فهمت. في أيّ صحيفة حضرتك؟

ـ في كلّ الصحف.

تأمَّله الضابط بدقة، بدا مندهشًا جدًّا من إجاباته التي لم يستوعبها. لذلك أردف علَّه يوضح الأمر.

ـ هناك كتَّاب يعملون بالصحف، وهناك كتَّاب أحرار. هذا ما أقصده.

ابتسم الضابط وقال:

ـ إذن أنت من الأحرار يا علي!!

ابتسم هو بدوره، فالضابط يتبسَّط معه، ويردِّد العبارة الشهيرة التي قالها أحد الضباط الأحرار لعلي بطل رواية «رد قلبي»، وهو يضمّه إلى تنظيمهم السريّ الذي يخطِّط للثورة، وهي العبارة التي شاعت في كلّ البلاد العربيّة بعد أن تمّ تحويل الرواية لفيلم كبير وشهير.. يستطيع هو بدوره أن يتبسَّط مع الضابط الذي بدا له لطيفًا بحقّ. ابتسم وقال:

ـ مع ملاحظة أنّني لا علي ولا من الضبّاط الأحرار.

ـ طبعًا طبعًا. قلت لي ما اسم حضرتك؟

تردَّد لحظة ـ راشد رشاد أم سالم سليمان!!.. اختار الأخير الذي ناداه به المأمور.

ـ سالم سليمان.

ـ رغم أنَّ اسمك المدوَّن أمامي راشد رشاد. حضرتك تكذب. أنت تظنّني لا أقرأ..

قال الجملة الأخيرة بصوت أعلى. بدا غاضبًا إلى حدٍّ ما. وفتح أحد أدراج مكتبه وأخرج صفحة من جرنال قديم وضعها أمام عينيه، وقال بانفعال:

ـ هذه هي صورة سالم سليمان، وأنا منذ صباي من كبار المعجبين به. يعني حضرتك كذَّاب.

نزل عليهما صمت ظلّ فيه الضابط الشابّ ينظر إليه بتحدٍّ مخيف. لم يعرف ماذا يمكن أن يفعل أو يقول. لقداستخدم الاسم الذي ناداه به المأمور، متصورًا أنَّه ما دام المأمور قد فعل ذلك فسيفعله الجميع. وكان مندهشًا كيف أنَّه لا يحمل من سالم إلا صوته، وتعرَّف عليه المأمور من صورته، أو من المكالمة التليفونية المجهولة، وهو يتعجَّب الآن من الضابط الذي لا يرى فيه أيّ شبه بسالم سليمان، ولا يدرك أنَّه يحمل صوته، وخطر على باله كيف اختفى «فرح» منذ خرج من المستشفى. ذلك الكائن الصغير الذي لا يفارقه منذ اختفى سالم والذي لا يراه إلاّ هو. ذلك الشيطان الذي لم يفارقه أبداً.

كان الضابط لا يزال يمعن النظر إليه، ثم صرخ:

ـ أنت يا حمار ياللي على الباب.

انتفض من مكانه، في الوقت الذي قفز إلى وسط الحجرة أحدُ المخبرين أدى التحية على عجل.

ـ خذ البيه الكذَّاب إلى التخشيبة.

..........

ـ شمَّ في جزمتك يا أخ..

كان الرجل الذي يبدو أكثرهم إجرامًا قد خلع جزمته بالفعل ووضعها أمام أنفه. لم يجد هو أيضًا غير هذا الحلّ..

لم تكن رائحة التخشيبة نتنة إلى هذا الحدّ. كانت هناك رائحة زنخة مكتومة حقًّا، لكنَّ ذلك لم يكن السبب الوحيد. كان هناك شابّ يجلس في ركن بعيد من التخشيبة يتبرز على أرضيتها.. نظر هو إليه غير مصدِّق، فقال رجل آخر:

ـ الشخة في دورة المياه بخمسة جنيه، «والتسييرة» بجنيه. ومن لا يملك المال يركن هنا.

وأشار إلى الحائط الذي يتبرَّز أمامه الشابّ.

في الحقيقة كانت التخشيبة واسعة بما يكفي لذلك، ولم يكن ملحقًا بها دورة مياه وكان هناك براز كثير بعضه طريّ وبعضه ناشف من أيام سابقة.

وقال رجل ثالث مشيرًا إلى الشابّ الذي يتبرَّز.

ـ أصله ابن وسخة معفّن، لا يستطيع التحكُّم في نفسه حتّى الصباح.

ثم خاطب الشابّ، الذي كان يبتسم متلذّذًا وهو لا يزال يتبرَّز:

ـ ربنا يقرف أمّك.

هل ممكن أن تنجاب بعد قليل هذه الرائحة. تصعد وتخرج من النافذة المستطيلة العالية القريبة من السقف، هذه العشر سنتيمترات التي تفصل بين الحائط والسقف والتي يعتبرونها نافذة؟

انفتح باب التخشيبة فأصدر صوتًا ودخل المخبر حاملاً الكباب تسبقه رائحته. كيف وجدت رائحة الكباب طريقًا لها؟

هتف المتَّهمون «كباب» ونهض الشابّ عن التبرُّز بسرعة رافعًا بنطلونه إلى وسطه.. هتف المخبر محذِّرًا:

ـ كلّ واحد في مكانه. هذا أكل الأستاذ...

وتقدم ناحيته يناوله اللّفة الورقية الكبيرة التي كانت ساخنة، وقال:

ـ اتنين كيلو كباب وعيش وسلاطة وطحينة وهذا هو الباقي. وناوله ما تبقّى من النقود وخرج مسرعًا.. لاحظ وهو يضع النقود في جيبه أنَّ نظرات الجميع معلّقة بالكباب. فرد الورقة أمامهم فوق الأرض. أقبلوا عليها بسرعة. قال أحدهم:

ـ هذا بالكاد كيلو واحد، لكن لا بأس. ويتَّهموننا بالسرقة. المهمّ أنّه كباب وليس حجارة...

انكبُّوا يأكلون. كانوا أكثر من عشرة. في لحظة اختفى كلّ شيء. كلّ منهم طال قطعة واحدة بالكاد. هو لم يأكل

معهم. جلس في ركن بعيد صامتًا. بدأ يسمع أصواتًا مبهمة. مزيج من صراخ وضرب. بدا أنّه قد شرد عنهم بذهنه تمامًا. اقترب منه الذي يبدو أكثرهم إجرامًا وهمس:

ـ مالك يا أستاذ؟

ـ لا شيء. فقط أسمع أصواتًا غريبة.

ـ هذا من البدروم.

ـ بدروم؟

ـ أجل. تحتنا مباشرة. سلخانة. ضرب وتعذيب على أصله.

فكَّر كيف حقًّا يخترق الصوت سقف البدروم الذي هو أرضية التخشيبة ويصل إليهم. لابدّ أنّ السقف رقيق جدًّا أو أنّ الضرب رهيب جدًّا!

وأضاف الرجل:

ـ في البدروم فلكة وعروسة وكرابيج وعصيان خيزران وزان وكومبروسور للنفخ. كلّ الإمكانيات في خدمة الشعب في الحقيقة..

ضحكوا جميعًا في صخب. لكنَّ أصوات هرج أقبلت من شراعة باب التخشيبة، فقال أحدهم:

ـ قم وتفرَّج. تعال، لا تخف..

وسحبه من ذراعه ومشى به ناحية شرّاعة الباب.

نظر من الشرّاعة الصغيرة ليرى شابًّا لا يتجاوز العشرين، حوله عدد من المخبرين والعساكر يضربونه بالعصيّ الزان وبأيديهم وأرجلهم، وهو يتقلَّب بينهم مثل كرة على الأرض.. ومع كلّ ضربة ينبثق دم من جسمه العاري حيث بدت ثيابه ممزقة في كلّ مكان. لم يبق للشابّ غير السروال، لكن في لحظات مزَّقوا السروال، ثم شبحوه على سور الطرقة المنخفض الذي يحيط بالفناء، بحيث يكون ظهره إليهم: وأدخلوا بهدوء فيه خيزرانة فصرخ الشابّ من النار التي اشتعلت داخله وتهدَّلت ذراعاه وتركوه يسقط على الأرض وتهمد حركته. كان هو بدوره قد سقط على أرض التخشيبة وجلس واضعًا رأسه بين يديه مغمضًا عينيه.

أقبلوا نحوه في دهشة، وسأله أحدهم:

ـ ماذا جرى يا أستاذ؟

أجاب بصوت ضائع:

ـ مات.

ـ من الذي مات؟

ـ الشابّ الذي كانوا يضربونه.

ضحكوا، وقال أحدهم:

ـ أنت قلبك قلب عصفورة يا أستاذ! ثم أنّ الشابّ لا بدّ قد أخذ برشامة تجعله لا يشعر بأيّ شيء.

ـ وبعد لحظة ـ أنت بتشتغل إيه!

لم يردّ.. فأخذ متّهم آخر بيده ومشى به إلى ركن بعيد وقال:

ـ نلعب كوتشينة ما رأيكم؟

بسرعة انقسموا إلى ثلاث مجموعات، كلّ مجموعة من أربعة أشخاص. كان هناك شخص زائد يجب أن يظلّ يتفرَّج عليهم. اختار هو أن يكون المتفرِّج. وقبل أن يبدأوا اللعب قال أحدهم:

ـ وحتّى لو مات. ليست هناك مشكلة. من فوق السطح يقع. الطبيب الشرعيّ سيجد في بطنه حبوب مخدِّرة تكفي لقتل حصان. انتحر..

انخرط هو في بكاء مرير، وهم ينظرون إليه في حيرة حقيقية..

..........

ـ حرام عليكم.. بلاش تضحكوني لحسن أشخ تاني.

قال ذلك الشابّ الذي كان يتبرَّز من قبل، وهو يحاول ألاّ يضحك على نكتة جنسية حراقة قالها أحدهم.

كان الوقت قد اقترب من الفجر. بعضهم نام وصار له شخير مزعج. وانفتح باب التخشيبة ودخل أحد المخبرين يسوق أمامه عشيق المرأة الذي سبق ورآه راشد رشاد في حجرة المأمور من قبل. كان الشابّ ملفوفًا في ملاءته التي صارت غير منتظمة حوله، زائغ النظرات ذاهلاً، على وجهه علامات رعب كبيرة. بدا وقد فقد كثيرًا من وزنه. بدا شاحبًا بحقّ، رغم أنّ راشد رآه فقط منذ ساعات قليلة. قال المخبر وهو يشير إلى العشيق:

ـ أنتم آخر تخشيبة في القسم، وكما فعل المتهمون في التخشيبتين الأخريين أريدكم أن تفعلوا حتّى لا يخون رجل في امرأته مرة أخرى. هذا الجبان النجس.. ـ وبعد لحظة صمت ـ قم يا ابن الشرموطة.. أنت وهو وهو «أوقفوا طابور وصحّوا ولاد الجزمة النائمين». سأقف عند الباب، وديني وإيماني من يتأخَّر منكم سوف أضعه مكانه..

قام اثنان منهم وتلكأ الباقون، لكنَّهم قاموا متبرِّمين. اقترب الاثنان الأوَّلان من العشيق الذي اعترته البلاهة فجأة، وقال على الفور:

ـ حاضر. حاضر. بس بالراحة والنبي. خلاص. خلاص. ما حدش يضربني. قولوا لي بس عايزين إيه. أفك الملاية. آ. .هُوهْ.

وترك الملاءة تسقط عنه بينما أشاح راشد رشاد بعينيه عن الموقف كلّه. كان يرى ويسمع ويرتعش مع كلّ كلمة يقولها العشيق.

فاجأه المخبر:

قبل أن أنسى. أنت يا راشد بك، يا سيادة الأديب، تعال معي.. أنت دخلت هنا غلط. البيه نسي أنَّ هناك توصية عليك.

على الفور نهض وأقبل نحوه مسرعًا، قبل أن يسمح له المخبر بالخروج، كان قد عبر الباب. قال المخبر للمتَّهمين:

ـ مسكين. مثقف..

وخرج مغلقًا باب التخشيبة خلفه ليجده واقفًا في الطرقة يرتعش. كان الجوّ باردًا حقًّا، والطرقة بدت لانهائية من طرفيها رغم أنَّها تدور حول الفناء المظلم الذي لا يظله سقف. وكانت ستائر الفجر تجاهد لتغمر الدنيا بنورها.. ووسط الفناء، على المقعد الذي اندهش لوجوده من قبل،كان الضابط الشابّ يجلس ويناديه:

ـ تعال هنا يا أستاذ سالم!

من فتحة في سور الممر انحرف إليه.

ـ لا تلمني. الفوضى أنستني توصية الباشا المأمور. لا تخف. إجلس هنا جواري.

كان هناك مقعد آخر قد أضيف. جلس. ربّت الضابط على كتفه وقال للمخبر!

ـ هات له شاي بسرعة.

لم يكن يريد أن يشرب أيّ شيء، ولا أن يأكل. فقط يريد أن تشتدّ الشمس ليركب العربة الذاهبة إلى النيابة لينتهي من عشرته. وفيما يبدو أنّ الشمس استجابت له فازداد النور، وسمع صوصوة عصافير تخرج من أعشاشها أعلى القسم، ثم تقبل من كلّ ناحية لتصنع مظلّة فوق رأس الضابط الشابّ الذي قال مبتسماً:

ـ لا تندهش. سترى ما لم يره أيّ كاتب في الدنيا. خبرة تفيدك في الكتابة.. ألا تحتاج إلى خبرة جديدة؟ لم يردّ. كان أحد العصافير قد حاول الابتعاد عن المظلّة فانطلقت حبّات رش من بنادق خفية أعلى سطح القسم، فعاد العصفور بسرعة يصرخ إلى زملائه فوق رأس الضابط، وبدأت عنابر بعيدة تنفتح ليخرج

منها عـدد كـبـير مـن النسـاء الـعـاريات يـتـقـدّمن في طابور أمـام الضابط وأمامه.

نظر الضابط إلى راشد رشاد الذي بدا مذهولاً للغاية، وقال:

ـ شفت شغلنا كم هو صعب؟

ولاحظ أنَّه شاحب جدًّا، فقال:

ـ لا تخف يا سالم بك..

تنهـد مـرتـاحًـا. هـا هـو يـقـول لـه «سـالـم» بـعـد أن قـال لـه من قــبـل «رشــاد». ســالـم أم رشــاد لا يـهـمّ الآن. فليـنسَ ذلك كـلّه وليناده الضابط بما يشاء من الأسماء. حتّى لو ناداه بناهد. هو في الحقـيـقـة يشعـر وكـأنَّه صـار شـخـصًا آخر، فلا هـو سـالـم ولا هـو راشـد. هو شيء لـم يتـعـقَّله بعـد، لم يميِّـزه بـالضـبـط. وفـوجـىء بالضــابط يمدّ ذراعـه إلى أعلـى ويمسك بعـصـفـورٍ من بين مـظلّة العصافير ويضعه بسرعة في فمه ويأكله على مهل.

كان طابور النسـاء قـد اخـتـفى وفـتـحـت عنابر أخـرى خـرج منها رجال وشـباب عراة انتظموا في طابور واحـد. كانت بطونهم منفوخـة ترتفع أمامهم إلى حـوالى متر، وفـي إست كلّ منهـم جزء ظاهر صـغـيـر من خـرطوم أحـمـر مـسـدود بقطن، كـذلك كـانت أنوفـهـم وآذانهـم وأفـواهـهـم مـحـشـوَّة بالقطن بحـيـث لا تـكـون هناك أيّ فرصة للهواء أن يتسرَّب.

مشوا معذَّبين خلف بعضهم وراح المخبر الذي يمشي جوارهم ينزع عن كلّ شخص يصل إلى الضابط الخرطوم الأحمر الظاهر من إسته، فيخرج الهواء شديداً إلى الخلف، له صوت، فيندفع الشخص إلى الأمام مهرولاً بسرعة كبيرة فلا يكاد يسيطر على نفسه حتّى يسقط في أخر الفناء، وقد سيطرعليه ارتعاش عظيم وتشنُّج أعظم. وهكذا.. واحداً وراء الآخر، حتّى أنَّ بعضهم من شدَّة الهواء الذي اندفع من دبره كاد يطير في الهواء ويتجاوز بناء القسم. لقد رأى راشد أجنحة تنبت لبعضهم وتحملهم إلى السماء.. ثم انطلقت حبات الرشّ من البنادق أعلى القسم، فعرف أنّ عصفوراً أراد الهرب ورفع بصره ليراه يعود إلى المظلّة بالفعل يرفرف بجناحيه ويصوصو بقوة. مدّ الضابط يده أمسك به وهو جالس ووضعه في فمه.

حين ظهر عسكريّ حاملاً لوحًا خشبيًّا، كان الرجال المنفوخون قد سكنت حركتهم على الأرض وكفّت تشنُّجاتهم وبدأ المخبرون يجرُّونهم إلى غرف أخرى. ثم ظهر مخبر يدفع أمامه متَّهمًا ضخم البنيان وقف أمام الضابط مرعوبًا، ولا يعرف راشد كيف استطاع المخبر بحركة سريعة أن يسقط المتَّهم الضخم على الأرض.

ـ نم على جنبك يا بْن الوسخة..

صرخ فيه المخبر فنام المتَّهم على جانبه، وكانت الشمس قد بدأت تصعد فوق الدنيا أكثر ويشتدّ نورها، ووضع العسكريّ اللوح الخشبيّ الطويل جوار المتَّهم على الأرض.

ـ نام على جنبك فوق اللوح «يا بْن الشرموطة».

ونام المتَّهم على جانبه فوق اللوح فجلس المخبر على وسطه ووضع في أذنه مسماراً وقال للعسكريّ «دقّ». كان مع العسكريّ مطرقة صغيرة، انحنى يدقّ بها على المسمار والمتَّهم يحاول التخلُّص ولا يستطيع من المخبر البارك فوق وسطه والذي يضغط على جانبه وذراعه بيديه. صار المتَّهم يصرخ وراشد أشاح بوجهه ناحية العصافير فوجدها ترتعش والعسكريّ راح يدقّ المسمار ويقول للمتَّهم «علشان تبقى متسمعش كلام الباشا يا خول». والمتَّهم يصرخ «خلاص حرمت. ح أسمع الكلام» ثم راح يصرخ فقط، ثم صارت أنفاسه شخيراً متقطِّعًا، أنفاسًا خافتة، ثم انقطعت وصار لوصول المسمار إلى اللوح الخشبيّ من الناحية الأخرى صوت والعسكريّ لا يزال يدقّ، وعاد راشد ببصره إلى الأرض ليرى المتَّهم قد صار هو واللوح الخشبيّ شيئًا واحداً، رفس مرتين بذراعيه وقدميه ثم حمله المخبر والعسكريّ واختفيا به وباللوح..

أراد أن يتوسَّل للضابط أن يتركه يغادر المكان، رأى الضابط يبتسم وهو يمسك بعصفورٍ ثالثٍ ويقول:

ـ خلاص. آخر عصفور.

وكان هو قد سقط مغشيًا عليه.

. . . . . . . . . .

ـ هيا يا أستاذ إلى النيابة..

استيقظ فوجد نفسه غارقًا في العرق. تلفت حوله وسرعان ما تذكَّر المكان. إنَّها حجرة المأمور. لقد نقلوه لينام على الكنبة الجلدية الجديدة. لم يكن المأمور قد أقبل بعد. لم يكن ثمَّة أحد حوله غير الجاويش الذي اصطحبه أمس من المستشفى إلى القسم. خرج ذاهلاً مع الجاويش يزدحم ذهنه برؤى غريبة لا يكاد يميِّزها. مشيا في الطرقة الطويلة التي رآها خالية تمامًا. أسلمتهما الطرقة إلى الباب الخارجيّ. رأى المخبر ذا الشارب الكثّ.

ـ صباح الخير يا أستاذ. تصدِّق بالله أنت أوَّل متَّهم ينام في غرفة المأمور.

هكذا قال المخبر وهو يضع يده في جيبي جلبابه حتّى ظنَّه سيعطيه شيئًا، لكنَّه أخرج يده بسرعة ومدَّها إليه مفتوحة خالية. وضع فيها خمسة جنيهات وكان يرتعش من البرد.

لم تكن العربة «البوكس» التي ستقلّه إلى النيابة بعيدة عن الباب. صعد سلَّمها الخلفيّ ومعه الجاويش الذي وضع القيد

الحديديّ في يديهما معًا. كان كلّ متّهم مقيَّدًا مع زميل له. يعرفهم ويعرفونه، يبتسمون له لكنَّه لا يبتسم. وقال الجاويش له هامسًا:

ـ لمكانتك ووظيفتك فضّلت أن تشاركني في القيد ولا تضع يدك مع مجرم آخر.

ثم مدّ له يده الثانية مفتوحة فوضع فيها ما تبقّى معه من نقود صغيرة، ومشت العربة بسرعة تخترق شوارع المدينة التي تستيقظ حوله. هل كانت حقًّا تستيقظ؟ هكذا تساءل في نفسه..

لقد خرج من النيابة بالضمان الشخصيّ مباشرة إلى شقّته. قال له الجاويش إنَّ هذه حالة نادرة، فالعادة أن يعود المتَّهم إلى القسم من جديد، ومنه تبدأ إجراءات الافراج التي قد تستغرق يومًا كاملاً. وقال الجاويش أيضًا:

ـ واضح أنّك إنسان طيِّب، لذلك لم يتخلَّ اللّه عنك.

و مدّ له يده من جديد، لكنَّه لم يلتفت إليها. ليس لأنَّه لم يعد يملك أيّ نقود صغيرة، ولكن لأنَّه في الحقيقة لم يكن يراها هذه المرَّة. وقبل أن يتركه الجاويش وقف يقول له:

ـ صوتك يا أستاذ تغيَّر جدًّا وأنت تردّ على أسئلة المحقِّق. كنت تتكلَّم بصوت حريميّ. وكيل النيابة كان مذهولاً ولا

يصدِّق.. وليتك كنت تتكلَّم بصوت حريميّ فقط.، بل أيضًا كنت تؤدي حركات بيديك وحاجبيك وشفتيك مثل النساء تمامًا. ولا تؤاخذني يا أستاذ كنت تتصرَّف ليس مثل الحريم العاديّ أيضًا.

في شقّته الصغيرة كان أول ما فعله هو أن نظر إلى المرآة. إنّها الشقة التي لم يدخلها منذ عام، والتي كان يزمع أن يجعلها مكتبًا يبدأ منه حياته الجديدة في العاصمة. لم ينتبه إلى قذارة الشقة من حوله ورائحة العام المنصرم، كان يستطيع أن يرى نفسه رغم الغبار الذي علا سطح المرآة. كان يودّ بالفعل أن يرى نفسه الآن.. رأى فوق رأسه شعرًا كثيفًا ينزل حتّى كتفيه، وعلى شفتيه رأى أحمر شفاه ثقيلاً، ورأى حاجبيه مزجّجين باللون الأسود وطالت أهدابه، ورأى أعلى الجفنين مصبوغًا باللون الأزرق، لون بدلته. خلع الجاكيت بسرعة وخلع القميص فوجد تحته كومبينًا ناعمًا، خلع البنطلون فوجد تحت الكومبين كيلوت حريمي صغيرًا جدًّا ناعمًا شديد الاحمرار.

## ـ ٢ ـ

لم يكن غير «فرح» ينقذه من الحمّى التي شملته أسبوعًا كاملاً. كان يجهِّز الكمّادات بالماء المثلج ويضعها على رأسه وجبهته.

كانت كلّ أفكاره السابقة عن فرح أنَّه ليس إلاَّ تجليًّا شيطانيًّا لازمه منذ فكَّر في الخروج من الصحراء العربية. إنّ الجريمة التي ارتكبها صارت تلازمه كظلِّه، رغم أنَّه ليس متأكِّداً أنَّه حقًّا ارتكب جريمة من أيّ نوع.

كان كثيراً ما يبدو قادراً على تقبُّل فرح، والفرح به أحيانًا، واعتباره صديقًا من نوع عجيب، لكنَّه قبل أن تنقلب به السيّارة ومعه زوجته وابنته، كان قد رأى فرح يمشي أمام زجاج السيّارة في الهواء ويضحك. لقدشغله عن الطريق فوقعت الحادثة التي

بعدها اختفى فرح. وقد ظهر له هذا الأسبوع صديقًا لم يتركه لحظة. نزع عنه ثيابه النسائية وأعاد إليه ملابسه الرجالية، وكلّ ما فعله هو أن ضحك وهلّل وصفّق بيديه الصغيرتين، ثم سرعان ما بدا مشفقًا عليه مبديًا كثيرًا من الألم من أجله، وها هو يقف أمام قدميه سعيدًا، وهو يراه يقف سليمًا قويًّا يرتدي بدلة شتوية جديدة.

كان فرح قد حلق له ذقنه وعانته وهو ممدَّد على السرير، وقال له وهو يلعب بين فخذيه «صاحبك في مكانه فلماذا كنت ترتدي ملابس النساء الداخلية وتضع مكياجها»، وابتسم راشد رشاد وهو على يقين من خبث فرح الذي لا شك يعرف ما جرى في قسم البوليس، وسمع فرح يسأله أين ستذهب الآن؟ فأجاب: «أين يمكن أن أذهب يا فرح إلاّ إلى البار الذي لم يغب عن ذاكرتي طيلة اغترابي؟.. بار برج العذراء الذي انفرد بهذا الاسم غير المتكرر في البارات»..

..........

اتَّسعت عيناه وهو يرى التاكسي يتحرَّك به بلا سائق..

ـ إيه يا أستاذ! مساء الخير..

ـ....................

ـ حضرتك تضحك وتكلِّم نفسك؟!

السائق موجود ويتكلَّم إذن. لكنَّه لم يرد. رأى الرعب قد جمَّد السائق خلف المقود.

المدينة حولهما صامتة، والوقت ليل، ظلام كثير وبرد ثقيل. زاد السائق من سرعة سيّارته، فالشوارع خالية. «لعلَّه يقول إنّني مجرم أو مجنون. هل يبدو على وجهي عزمي على شيء. سأغتصب كلّ نساء هذه المدينة. سأترك في أحشاء كلّ منهن طفلاً، شيطاناً من الشياطين التي تنحبس في صدري وتجري في رأسي. سيعرف الجميع أنَّني رجل. سأنتهي من النساء وأبدأ في الرجال. أجل. الرجال. ثم أبيع شقتي التي سأحوِّلها إلى مكتب وأختفي».. ربما لا يبيعها. يضرم فيها النار. إنَّه يراها تحترق أمامه. إنّ عينيه تتَّسعان للغاية. ينظر إلى الميدان الكبير الذي يخترقه التاكسي الآن على مهل رغم خلوِّه. على محيط الميدان أعمدة إنارة معلَّق بها رجال مشنوقون. إنَّه يقف تحت أرجلهم يتطلَّع إلى وجوههم التي شاهت من البرد والريح..

ـ أنزلني من فضلك

ـ الحمد للَّه!

قال السائق ذلك، فسأله:

ـ ماذا تقول؟

ـ لا شيء يا أستاذ.

نزل والسائق يرتجف. مدَّ إليه يده بالأجرة، لكنَّ السائق فرّ بالسيّارة قاطعًا الميدان الكبير بسرعة رهيبة داخلاً في الاتِّجاه الخاطىء للشارع بينما ظلّ هو واقفًا.

البار خلفه تمامًا. إنَّه لا ينساه. عشر سنوات وهو يتمنّى العودة إليه، فهل سيجد أحداً يعرفه. هل لا يزال هناك من يذكر راشد رشاد. الأغلب أنَّه لن يجد أحداً وسط هذا البرد القارس.

. . . . . . . . . . .

وجد شخصاً بدا له منسيًّا في البار منذ أيام سابقة.. شابّ يرتدي بلوفر رخيصاً فوق قميص متَّسخ الياقة فوق بنطلون جينز ضيِّق جدًّا.. فوق ذلك كلّه شعر أجعد. بدا متوحِّداً مع نفسه ومع كوب البيرة التي يعبّ منها ولا ينظر لغير الزجاجة. لكنَّ هذه السيِّدة الصغيرة التي تجلس في الناحية الأخرى تبدو أجمل بالتأكيد. هي أيضاً تشرب على مهل من كأس البراندي. وجهها خمريّ وعيناها عسليتان وفمها صغير تزمّه وهي تشرب.. الفم الصغير يعني الفرج الضيِّق، والشفّة الغليظة تعني الشفر الغليظ، واللِّسان الخشن مثل البظر.

سالم سليمان الأديب المشهور قال له ذلك، زمان حين جاء هو راشد رشاد، من مدينته الساحلية لأوّل مرَّة إلى العاصمة. لقد كان حول سالم سليمان عددٌ كبيرٌ من الشباب الضائع، قال

عنهم إنَّهم أدباء في أوَّل الطريق، وكان هو قد قرأ أسماء بعضهم فوق بعض القصص والمقالات من قبل، وقرأ لبعضهم قصائد أيضًا. بعد ذلك لم يقرأ لهم. سافر منذ عشر سنوات إلى البلدة الصحراوية التي لم يكن زعيمها يسمح بنشر شيء لأحد. هو وحده كان يؤلِّف كلّ أنواع الأدب.

لا أحد من هؤلاء الشباب هنا الآن. هذه السيِّدة الصغيرة الجميلة لم تكن هنا ذلك الوقت. لم يكن يوجد نساء وكان الحديث كلّه عن النساء!

ابتسمت له لأنَّه ابتسم لها. قامت، فظنَّها ستنتقل إلى منضدته التي جلس عليها، لكنَّها عادت وجلست مرَّة أخرى. لماذا قامت ولماذا جلست؟ لا يهمّ. ربّما لتريه البالطو الأنيق. قامت من جديد وخلعته ثم وضعته فوق المقعد المجاور. إنَّها ترتدي بنطلونًا ضيِّقًا وبلوزًا أحمر قصيرًا وضيِّقًا جدًّا ويبرز الإثنان استدارات جسمها وانخفاضاته. قام بشجاعة وجلس أمامها.

ـ هل أشاركك الشرب؟

صوّبت إليه عينيها الواسعتين وابتسمت. لم يكن الوقت مناسبًا للبكاء. رغم أنَّ المكان خالٍ إلاَّ منها ومن ذلك الشابّ. إنّ وجود امرأة صغيرة جميلة في أيّ مكان يوسّع منه ويملأه

بالحركة.. ورغم أنَّ حوائط البار بلاها القدم والمقاعد صامتة صمتًا بائسًا إلاَّ أنَّ وجود هذه المرأة الصغيرة يشيع حالة من الانشراح، رغم أنَّ الجرسون الأسود الضخم جالس وراء الكاونتر وخلفه وأمامه زجاجات وأكواب جامدة وهو نفسه، الجرسون، وضع رأسه على يده وأغفى.

البارات هي أجمل مكان للدفء في وقت البرد، والبار الآن خالٍ لكنَّ هذه المرأة الصغيرة الجميلة تعيد إليه وجوده كأجمل مكان للدفء حقًّا. لم يكن الوقت أبداً مناسبًا للبكاء لكنَّه بكى فجأة أمامها.. راح يحكي كيف انقلبت سيّارته في الطريق وهو عائد من البلد الصحراويّ، ولم يضايقه أنَّ صوته يحمل خنوثة صوت سالم سليمان: «استيقظت من الإغماء لأجد عربة إسعاف ورجال بوليس وسيّارتي مقلوبة بعيداً.هل قفزت منها؟ لا أعرف» فتحت فمها دهشةً، فكاد يدخل إصبعه فيه لولا أنَّه خاف أن تعضّ عليه.

وراح يحكي: «قال لي الضابط أحمد الله على نجاتك، وفي المستشفى تذكَّرت زوجتي وإبنتي. سألت عنهما قالوا ماتتا. قبل أن أغادر المستشفى سألت عن الحقائب والنقود التي كانت في السيّارة قالوا ماتت، ولما تفرَّست في وجه الصول العجوز الخبيث مندهشًا فقط من كون الحقائب والنقود يمكن أن تموت، قال لي لقد وجدنا في تابلوه سيّارتك باكو هيروين ما

رأيك؟ سكتّ ولم أسأل عن شيء مرّة أخرى. لم أقل إنّه حتّى لم يكن معي هيروين. وقالت لي الممرضة إذا كنت فقدت زوجتك وإبنتك، فما معنى النقود؟ لم أقلّ إنّه كان معي خمسون ألف جنيه، أدركت أنَّ مبلغًا كهذا تافه لا يستحقّ أن يسأل عنه أحد وسط هذا الغلاء الذي شمل البلاد، ولم يتوقَّف عن البكاء بلا صوت، ولم يشأ أن يحكي لها ما جرى له في قسم البوليس، وفكَّر لماذا يتذكَّر مأساته الآن هو الذي قرر أن ينسى، في الوقت ذاته كانت السيِّدة الصغيرة الجميلة تمشي بيدها على رأسه التي صارت منخفضة جدًّا، والشخص الذي يشرب البيرة بتبتّل كان ينظر إليه فاتحًا عينيه ويشرب البيرة الآن من الزجاجة، وخيِّل إليه أنَّه يخرج منه شيء وصل إلى الأرض وراح يزحف. كان له صوت تنفُّس ثعبان وحركته، لكن بلا لسان من أيّ نوع، وكان الهواء الخارج منه يطيِّر البقايا التي تعترض طريقه حتّى وصل إلى منضدتهما، وراح يتسلَّق ساق المنضدة حتّى ارتفع وتجاوز حافتها وتمدَّد بينهما ثم فتح فمه. الذي أدهشه بحقّ هو أنَّ المرأة الصغيرة الجميلة مدَّت يدها وجذبته نحوها، ثم راحت تصبّ البيرة في فمه قطرة قطرة. كانت تحتفظ بزجاجة بيرة جوار كأس البراندي، وابتسمت وقالت:

ـ مسكين!

وقبل أن يتساءل ما إذا كانت تقصده هو بذلك، قالت:

ـ كلّ يوم أفعل له ذلك.

كان الشخص الذي يشرب البيرة يتبتّل، يغمض عينيه في انتشاء هادئ، بينما تجمَّد هو على المنظر. هل ما يراه حقيقة؟ لقد نسي أنَّه كان يبكي منذ قليل، كادت أحداث قسم البوليس تقفز إلى ذهنه فهزّ رأسه هزّات سريعة لتتناثر ذكرياته حوله. لا يريد أن يحكي حتّى لا يتشقّق رأسه ويتفتّت على المنضدة. وتركت السيِّدة الصغيرة الشيء الذي راح يتراجع إلى صاحبه بينما هو يسأل نفسه كيف تطوَّرت الحياة في البلاد حقًّا. كم تمنّى يومًا لو أطلق ذَكَرَه يمشي في الطرقات يعابث النساء والفتيات. ها هو يرى ذلك يتحقَّق أمامه لشخص ضائع قد لا يستحقّ كلّ هذا المجد.

ودخل من الباب مغنٍّ أعمى يحمل عودًا أسرع إليه الجرسون يمسكه من ذراعه يساعده في الوصول إلى منضدة بعيدة، لابدّ أنَّها مخصَّصة له. ما إن جلس المغنِّي حتّى قال للجرسون:

ـ ألا يوجد غير ثلاثة أشخاص اليوم في البار؟

هتف الجرسون مندهشًا:

ـ طول عمري أقول إنَّك مفتِّح.

ضحك المغنِّي وقال:

ـ الأنفاس يا جحش. أنا أسمع الأنفاس.

صوت المغنِّي من الأصوات التي لا يمكن احتمالها إلاّ في البارات. إنَّه يغنِّي أغنية فايزة أحمد «بيت العزّ يا بيتنا»، مما جعل صاحب الشيء يتململ فهو تقريبًا بلا بيت، ولأنَّ راشد رشاد يرى أنَّ البار ليس هو المكان المناسب لأغنية كهذه، ركَّز عينيه على المرأة الصغيرة الجميلة، التي بدورها قالت له:

ـ أنا أعرفك جيِّدًا، لذلك سمحت لك بالجلوس معي، بل إنَّني طالما تمنَّيت أن أراك منذ اختفائك.

و قبل أن يقول لها اسمه، قالت:

ـ أهلاً بك يا أستاذ سالم.

اتَّسعت عيناه دهشة. حقًّا هو يحمل صوت سالم سليمان، لكن هل أيضًا نسيت المرأة الصغيرة صورته إلى هذا الحدّ الذي جعلها تعتبره سالم سليمان؟ ولماذا لا تكون مؤامرة حَبَك خيوطها المأمور، الذي كان أول من ناداه بسالم سليمان؟ أتكون عميلة للسيِّد المأمور؟ إذا كانت كذلك فهي تستحقّ أن يبدأ بها.

وقالت الفتاة وهي تنظر إليه بإمعان:

ـ أنا من معجبيك الكبار ـ وتنهّدت ـ يا إلهي ! إنَّها قصّة طويلة. لقد جرَّبت مرَّة كتابة قصّة على طريقتك. كانت جميلة جدًّا، وأرسلتها إلى جريدتك، نشرتها أنت مع مقدّمة رائعة تمنَّيت فيها لي النجاح. كنت ساعتها في القرية فتركتها وأتيت إلى هنا. للأسف لم أجدك ولم أعد إلى قريتي.. لقد غبت عنا كثيرًا يا أستاذ..

صفحة عنقها تبدو أمامه في نداوة الشمع وبريقه، مما جعله يمدّ فمه إليها، فاقتربت بوجهها منه وتركته يلثمها على العنق، ثم ضمَّت رأسها إلى كتفها من أثر الكهرباء التي جرت في جسدها. قالت وهي تتراجع برأسها:

ـ عشر سنين يا بْن الكلب.!

زالت الحدود بينهما تمامًا. قال:

ـ ما رأيك أن نستكمل الشرب في مكتبي؟

ـ عندك مكتب؟

ـ أجل.

ـ ليست شقّة إذن؟

ـ لا. مكتب كنت اشتريته في العام الماضي استعدادًا للعودة هذا العام.

وقفت ترتدي البالطو، وقالت:

ـ رائع جدًّا. أنا لا أحبّ الذهاب إلى الشقق!

ضحكا. إنتبها إلى أنَّ المغنِّي لا يزال يردِّد أغنية فايزة أحمد، وبان ضيق شديد على وجه صاحب الشيء الذي كان قد دخل في البنطلون الآن..

.........

صفعهما هواء مفاجىء وزخّة مطر شديدة فتراجعا تحت البلكونات. كان لاصطدام المطر بالأرض صوت نقرات متَّصلة، وفي اللَّحظة التي فكَّر فيها بصعوبة العثور على وسيلة نقل توقَّف تاكسي أمامهما. «لولا ما كنت ادخرته في البنوك قبل الحادث لصرت شحَّاذًا» ـ قال لنفسه بلا مناسبة، «ها أنذا أبدأ في غزو مدينتكم الكبيرة سأبدأ بهذه المرأة الصغيرة الجميلة التي تسمِّيني بسالم سليمان».

كان قد التقى سالم سليمان هذا في الدولة الصحراوية القريبة. كان هو الذي التقى بسالم سليمان هناك! جلسا تحت ضوء القمر والنجوم التي تملأ السماء. كانت الليلة صيفية نسيمها طريّ يبعث في الجسد الراحة وفي الروح الأمان. لكن بعد ذلك لم يظهر سالم سليمان أبداً. لقد مشيا فوق الكوبري المعلَّق بين الجبال والخضرة تملأ السفوح.. وفجأة قال لسالم إنَّها

مسافة كبيرة جدًّا بين الكوبري وقاع الوادي، فقال سالم انظر إلى الطيور كيف تصعد وتهبط بسلام، ثم قفز. في الحقيقة صرخ. هو الذي دفعه. في الحقيقة.. لا يقين أمامه. لا يعرف بالضبط كيف مات سالم سليمان. ربّما مات بطريقة أخرى. مؤكَّد. لم يعد يراه بعد ذلك. وهذا يعني أنَّه مات.

ـ مكتبك في دور عالٍ يا أستاذ؟

ـ لكنَّنا نصعد في المصعد.

ـ ولو!

بدت أمامه أجمل مما بدت في البار. هذا غزو مبكّر للمدينة. إنَّه في الخمسين من عمره. ليس عجوزاً بما يكفي ليقنع بالابتعاد عن الحياة. وليس شابًّا فيه فورة الشباب. الخمسون منطقة منحطّة، ففيها تشتعل المراهقة في الروح ويتخاذل الجسد. هذه المرأة الصغيرة الجميلة الكاذبة لا تبدو تجاوزت الثلاثين. ستدبّ الروح في جسده من أنفاسها. أجل يا سيِّدي الضابط. يا سيِّدي المأمور!

استدارت فجأة وأعطته ظهرها.

ـ إهرش لي هنا.

وأشارت إلى ردفيها فمدّ إصبعه يهرش لها.

ـ خلاص.

لكنَّها عادت واستدارت مرّة أخرى وهي تضحك.

ـ إهرش لي تاني. أصلُه فيه حاجة بتاكلني.

هرش لها أسرع من المرَّة السابقة. ردفها طريّ متماسك تحت البنطلون.

ـ بس.. خلاص.

كان المصعد قد توقَّف. فتح الباب وخرجا. فتح باب المكتب ودخلا. أضاء النور ولاحظت هي أنَّه ترك باب المكتب مفتوحًا. قال:

ـ لحظات حتّى يدخل أو يخرج.

لم تعرف عم يتكلم. لكنَّه أغلق الباب وقال:

ـ لقد نسيت. إنَّه يدخل ويخرج من أيّ مكان.

ابتسمت. للحظة اندهشت. ارتبكت. ابتسمت من جديد.

شدّ انتباهها أنَّ بالصالة مكتبًا خشبيًّا صغيرًا عليه جهاز كومبيوتر في صندوقه لم يفتح، وبعض أوراق.

ـ هذا كلّ شيء؟ ـ تساءلت.

أجاب:

ـ بالغرفة الداخلية سرير.

كانت الغرفة التي يتحدَّث عنها أمامها، بابها مفتوح على الصالة، وكانت صغيرة جدًّا كما يبدو من السرير الصغير الظاهر فيها. أشارت إلى الثلاجة الموضوعة في ركن من الصالة وسألته:

ـ عندك شرب؟

ـ وأكل أيضًا.

دارت حول نفسها ترفرف مثل فراشة. أخرج من الثلاجة زجاجة من الويسكي كان قد شرب نصفها من قبل، وجبنًا وزيتونًا، وجلسا على مقعدين متقابلين يأكلان ويشربان فوق منضدة صغيرة سطحها من رخام.

أشارت إلى الحجرة الصغيرة، وتساءلت:

ـ أهذه هي الحجرة الثانية؟

ـ كما ترين. السرير مباشرة قرب الباب. حجرة صغيرة جدًّا بالكاد تكفي شخصًا واحدًا.

قامت تعاين الغرفة التي بدت كفتحة مسحورة، وقفت عند الباب تنظر إلى الجدران الخالية من أيّ شيء فوق السرير. كان هو قد قام ووقف وراءها. ولأنَّها خلعت البالطو من قبل عند

دخولها كان سهلاً أن يمسك ببلوزتها من الجانب يرفعها إلى أعلى، في الوقت الذي بدأت تفكّ أزرار البنطلون. قفزت بسرعة فوق السرير الذي بدا مخصصًا لشخص واحد. ضحكت وقالت:

ـ أرني كيف ستصعد أنت الآن!

ـ فوقك. لا حلّ آخر.

ـ يا مكّار! لقد اشتريت سريرًا ضيقًا لهذا السبب.

كان مندهشًا لجسدها النحيل كيف يحمل هذا الصدر الوثير، وكان اندهاشه أكثر لبطنها الضامر الشديد الانخفاض، ونظر كيف علا فخذاها حتّى أخفيا ما بينهما. سقطت ملابسه عنه وامتدَّت يدها الصغيرة تسحبه من العصا التي انبثقت منه.

ـ طيِّب. سأصعد. لا تدفعني هكذا.

سمعته واندهشت. تساءلت:

ـ أنت تكلمِّ أحدًا آخر؟

لم يردّ. تذكَّرت ما فعله حين ترك الباب مفتوحًا. وانتبهت إلى أنّ ملابسه قد زالت عنه دون أن تمتدّ يده هو تقريبًا. تأكَّد لها أنَّه شخص غريب الأطوار. لقد استبعدت بشدَّة أن يكون هناك شخص ثالث معهما.

وانقلبت بسرعة على بطنها.

« كان سالم يحدِّثني كثيراً عن اللَّذة غير العادية لإتيان النساء من الخلف. رأيت بدو الصحراء يفعلون ذلك في الرجال والغلمان. تذكَّرت الحديقة الرومانية بالبلدة الصحراوية التي عشت فيها عشر سنوات. السيّارات التي تأتي مع المغرب تحمل النساء إلى الشقق والأوتيلات. الأسعار غالية والبلدة فقيرة. ولما جرَّبت ذلك شهقت العاهرة الصغيرة وأنا أطلب منها أن تأتي معي إلى البيت، وقالت وهل أذهب إلى غير البيوت؟ كم تدفع؟ قلت مائة دولار، قالت الحمد للّه إذن أنت من حزب قدّام. قلت أنا لم أجرِّب الخلف أبداً ولا أظنّ أنّي أحبّه. قالت إذن سآتي معك بالمائة دولار.. لكن، إذا غيَّرت رأيك تزيدها خمسين دولاراً فأنا لا أعطي أحداً ظهري بسهولة، ثم ضحكت وقالت: على العموم أنتم في بلادكم لا تحبُّون الوراء، تحبُّون فقط أن تهربوا قبل الدفع. تنامون مع النساء ببلاش!! وفتحت يدها تستقبل المائة دولار مقدماً».

ـ لماذا تقف صامتاً؟

تساءلت المرأة الصغيرة الجميلة، فمال فوقها.

كلّ شيء فيها دافىء إلاّ المؤخرة. لا بأس.. على مهلك. قالت... روحه تنسحب منه الآن. لابدّ أنّها تتلذَّذ أكثر منه. إنَّها طريقة لا تصلح للانتقام، وهو يريد الانتقام.. لكنَّها صرخت فاندفع خارجاً عنها مضرجاً بدم...

كانت تعاني من البواسير وراحت تخبِّط رأسها في المخدة وتضرب بكفَّيها جانبي السرير وتنتفض. لم يكن قد أطفأ نور الغرفة، لكنَّه رأى الظلام حوله من كلّ ناحية. إنَّه لا يرى. حقًّا لا يرى. كيف لا يرى وهو يملك عينين؟ قفز بسرعة نازلاً عنها مبتعداً عن الغرفة. جرت معه رائحة كريهة وهو يصرخ «عندي مسكِّن للألم».. وراح يبحث في كلّ أدراج المكتب ودولاب الملابس الصغير وهرول إلى حجرة المطبخ يبحث في أدراجها، وفتح باب الثلاَّجة أيضًا فعثر فيه على الروبالجين الذي لا يعرف متى اشتراه، وهل أخذه معه من المستشفى، وعاد إليها مسرعًا.. لكنَّه وقف حائرًا وأنبوب المرهم في يده.

ـ إدهن، بسرعة.

ـ كيف؟

ـ بإِصبعك.

قالت وهي تنتفض بمؤخرتها وتضرب جانبي السرير بيديها. راح يدهن. في البداية صرخت. شيئًا فشيئًا استجابت للصمت. كانت أنفاسها تتلاحق. شيئًا فشيئًا تباعدت. تنهّدت في النهاية تنهيدة طويلة وشخرت شخرة طويلة ونامت. ماتت ـ قال في نفسه مرعوبًا وهو يراها ممدَّدة أمامه جميلة كشعاع من نور. لا يمكن أن تكون عميلة للمأمور ولا لأيّ جهة كانت. يا

لها من مسكينة معذَّبة. سمع أنفاسها. انقلبت على ظهرها بهدوء فتنفس مرتاحًا.

ـ ماذا فعلت؟

ـ لا شيء.

ابتسمت وهي تشير إليه.

ـ أنت عريان!

ابتسم.

ـ وأنتِ أيضًا.

ـ لا تؤاخذني.

ـ سأذهب أغسل يدي في الحمام.

ـ يديك فقط؟

ـ كلّه. كلّه.

إبتسمت متهافتة. ذهب يغتسل وعاد فوجدها قد ارتدت ثيابها، لكنَّه لاحظ أنّ الكيلوت لا يزال على الأرض.

ـ كيف أراك؟

ـ في البار في المساء في أيّ يوم. في برج العذراء يتجمَّع كلّ الأحبّاء يا أستاذ...

أشار إلى الكيلوت.

ـ خلِّيه عندك. تذكار!

ابتسم.

ـ أنا أعرف أنَّ الرجال عيونهم فارغة. ولو كنت أقدر كنت تركته لك ملآن. لكن تخيَّل أن أترك لك فيه أعزّ ما أملك كيف أمشي بين الناس. من سينظر إليّ ؟

ضحكا بصوت عال. قبّلته ونزلت. تناول الكيلوت ورغبة تشدّه ليشمَّه. صعدت إليه أبخرة المسك. ما أجملها.. فتاة البواسير هذه! لكنَّه لم يعرف اسمها. لم يسألها. هي إذن فتاة البواسير. من اليوم هذا إسمها. وفكَّر وهو متألِّق العينين أنّ فكرة الاحتفاظ بكيلوتات النساء رائعة حقًّا. سمع صوت ضحكات رفيعة في الصالة. نظر فرأى «فرح» يخرج من الباب والكيلوت في يده. كيف حقًّا أخذ الكيلوت من يده دون أن يشعر بذلك؟

............

## ـ ٣ ـ

في الصباح تقاطرت الفتيات طالبات العمل. كان قد طلب من كبرى الصحف في اليوم السابق على خروجه من المستشفى أن تنشر إعلانًا بوظيفة سكرتيرة حسناء لكاتب وأديب، يقع مكتبه في العاصمة وفي الإعلان العنوان. اليوم ظهر الإعلان في الصحيفة.. ومنذ العاشرة والفتيات يُقبلن على المكتب.

في الساعة الأولى استقبل عشر فتيات لم تعجبه واحدة منهنَّ. لقد تغيَّرت نظرته للمسألة أربع مرات، في الأولى كان وهو عائد من الدولة الصحراوية يفكِّر في هذا الإعلان ليوظِّف حقيقة سكرتيرة حسناء تجيد الكتابة على الكومبيوتر، لتنظِّم وقته وتكتب مقالاته وقصصه التي سيبدأ بها حياته الأدبية

الجديدة بلا خوف من فقر أو منافسة، وفي المستشفى فكَّر أن لا يفعل ذلك بعد أن أدرك موت زوجته وإبنته، وقبل الخروج قرَّر أن يعود للإعلان عن هذه الوظيفة، لأنَّه لم يعد له إلاَّ الأدب والكتابة. وبعد خروجه من قسم الشرطة قرَّر الفتك بكلّ الناس... على الأقلّ الآن.

في الساعة التالية استقبل عشرين فتاة بينهنَّ عشر فائقات الجمال. لاحظ أنَّهنَّ جميعًا كاذبات يتحدَّثن عن عائلاتهنَّ المحترمة وأماكن سكنهنَّ الراقية. أخذ عناوينهنَّ وأرقام تليفوناتهنَّ وقال إنَّه سيرسل إليهنَّ في الوقت المناسب. لم يبدُ أنَّهنَّ تألَّمْنَ رغم أنَّه أراد تعذيبهنَّ. كان واضحًا أنَّهنَّ تعوَّدن على التقدُّم إلى أعمال كثيرة والعودة دون الحصول عليها. وجد بينهنَّ عددًا كبيرًا على استعداد لعمل أيّ شيء. لم يعجب بهنَّ. إنَّه يريد الصنف الخجول الصامت الرقيق الباحث بحقّ عن عمل شريف. يريد هدم الحصون. استبقى واحدة من هذا الصنف، وقال:

- رتِّبي معي عناوين وتليفونات المتقدِّمات.

جلست معه تستقبل الفتيات وتفعل ذلك. لقد تدفَّقت الفتيات إلى درجة أنَّه طلب منهنَّ الوقوف في الردهة أمام الشقة، فالصالة صغيرة لا تستوعبهنَّ. كان منظرهنَّ وهنَّ واقفات في

الردهة بين أبواب الشقق الأخرى مخجلاً حقًّا. لكنَّهنَّ دخلن مع بعضهنَّ في أحاديث كثيرة وثرثرة مما جعلهنَّ لا يرين شيئًا حولهنَّ.. عند الساعة الخامسة انقطع وصول الفتيات. لم يكن يفعل أكثر من أن يسأل كلّ واحدة منهنَّ عمًّا إذا كانت قد عملت من قبل وأين، وهل تعرف ما هو واجب السكرتيرة، ثم يتفحَّصها من أعلى إلى أسفل، وكان يرى جسدها مضيئًا تحت الثياب. كانت نظراته تنضو الثياب عنها. ورغم ذلك تعب حتّى إذا لم يعد موجوداً غيره هو والتي استبقاها، جلس خلف المكتب الخشبيّ واضعًا رأسه بين يديه متّكئًا على المكتب بمرفقيه. كان قد أخرج الكومبيوتر من صندوقه فصار يشغل مساحة من المكتب.

ـ مالك يا أستاذ؟

تساءلت البنت الرقيقة.

كاد يصرخ هل بقي أحدٌ اليوم لم يأتِ إليّ في البلاد؟ لكنَّه قال فجأة:

ـ أرهقتني البنطلونات الضيِّقة. ترى كم مؤخرة رأيتها اليوم؟

بدا على وجه الفتاة الرقيقة وقع الصدمة. وهو انتبه إلى ما قال.

ـ آسف جداً، لا بدّ أنّني تعبت بحقّ. أحضري لي زجاجة الويسكي من الثلاجة.

تردّدت لحظة.

ـ مالَكِ؟

ـ لا أعرف الويسكي.

ـ هي زجاجة واحدة في الثلاجة هاتها.

استدارت. ابتسمت بعد أن استدارت، بينما كان هو يركّز عينيه على مؤخّرتها الصغيرة. كم هي جميلة الإستدارة. هي الانتقام الثاني. الأولى. لا يجب أن يحصي فتاة البواسير.

جلست البنت على مقعد مواجه للمكتب بعد أن وضعت أمامه الزجاجة وكأساً أحضرتها من غرفة المطبخ. صبّ لنفسه الكأس ونهض ليجلس جوارها. فلأجرّب فإذا جفلت أرسلت لغيرها غداً. ما أكثرهنّ الآن.

ـ لماذا تحبّ بعض النساء الإتيان من الخلف؟

قال ذلك فجأة. تراجعت في ذعر إلى آخر المقعد الطويل. بل وقفت مرعوبة.

ظلّ هو ينظر إليها وهي تتكلّم في غيظ.

ـ حضرتك طلبت منّي العمل لتسألني عن ذلك!

ابتسم ووقف:

ـ لا تخافي.

اقترب منها والكأس في يده. بيده الأخرى مشى على رأسها. لا تخافي يا صغيرة. أنت صغيرة جداً أنا أعرف، وأنا مثل كينج كونج. الفتاة الصغيرة أحبَّت كينج كونج في الفيلم الأميركيّ. ألم تشاهديه؟ كانت تبتسم وهو يضمّها برفق إلى صدره. همست:

ـ أقول لك السبب؟

ـ قولي.

ـ يخفن من الحمل، حبوب منع الحمل تسبِّب السرطان، واللوالب تضيِّق خلق النساء، والأهمّ من ذلك أنَّ بعض السيَّاح العرب يحبُّون الخلف.

كان يقبِّل رأسها وجبهتها الباردة وهي تقول هامسة بلاش. لأ. حرام. وبيديها الصغيرتين تفكّ أزرار بنطلونه. وحين لامست يداها جسمه كان لهما ملمس أرنب، وبسرعة كانت قد أمسكت به وأخرجته من البنطلون وهبطت على الأرض. إنّه يشرب الآن الويسكي ويتلذَّذ بالألم. يتألَّم باللّذة فلا فرق. يده تعبث بشعرها وهي تقوم بعملها ولا تتقطَّع أبداً أنفاسها.. فأنفها مفتوح على الغاية...

كانت هذه أوَّل مرَّة يفعل فيها ذلك، وكان خائفًا بحقّ، وجدران الغرفة تتلاشى من حوله. سيراه الناس في الدنيا كلّها وتصير فضيحة، وهو يهتزّ ويكاد ينخلع عن الأرض وهي تتشبَّث بيديها بقوة في ردفيه، ولما تركته كانت الكأس قد سقطت على الأرض وانكسرت، واندفع هو إلى الخلف هاويًا على الفوتيل في استرخاء عجيب.. ينظر إليها فيراها وسط غبش وضباب كأنَّها حلم نهار.

ـ يا بنت الكلب!

قال وهو في منطقة العماء الكامل. وحين فتح عينيه بعد لحظات لم يجدها.

ـ تعال.. أنا هنا.

أتاه صوتها من الحجرة.

نهض يمشي مباعداً ما بين ساقيه، ينظر إلى خيط المنيّ الذي يتدلّى منه ويكاد يصل إلى الأرض. كان البنطلون والسروال إلى أسفل عند قدميه. فأخرج قدميه منهما وخلع حذائيه والبلوفر والقميص والفانلة ومشى عاريًا إلى الحمام ليغتسل. تحت الماء ضحك وقال لنفسه: «بنات اليوم فيلم قديم لعبد الحليم حافظ لا يعني شيئًا الآن»

.........

ـ قبل أن تصعد لي شرط!

ـ إشرطي.

ـ مرَّة من هنا تقابلها مرَّة من هناك.

سكت لحظة. هل يقدر على ثلاث مرات؟. هذه الخمسون سنة! قال:

لافائدة. وربما تدرك أنَّه لن يقدر إلا على مرَّة أخرى. لكنَّه تشجَّع. من يدري. قد تتفجَّر فيه بئر منسيّة في جسده باللبن والعسل. ربّما هناك فيض قديم من الخصب مختبىء فيه، وطاقات الإنسان لا تنتهي إذا أراد..

لكنَّها كانت تحبّ العكس جداً، حتّى أنّه مع أوّل طعنة قالت له إنَّها تخلَّت عن شروطها وتختم بالعشرة على ذلك. ثم لم تعد تفوه بكلمة. فقط كانت تتأوَّه بصوت ـ فكَّر أنَّه قد يصل إلى الشقق المجاورة. ثم كاد يهمد بحقّ وهو يتذكَّر فتاة البواسير. لكنَّ هذه سليمة الجدران.

تراجع عنها وهو يشعر بجسمه يشتعل. لقد عرف السيّاح العرب عظمة الباب الضيِّق، قبل أن تخترع أميركا الجينز. قال لنفسه وهو يتراجع مهتزًّا لا تكاد ساقاه تحملانه.

ـ أنت تكلِّم نفسك؟

ـ لا تهتمّي. كثيراً ما أفعل ذلك.

مشى إلى الصالة وارتمى على أقرب مقعد فارداً ساقيه ذاهلاً عن نصفه الأسفل تماماً معلّقاً بصره بالسقف. تذكّر فرح. ذلك الكائن الذي كثيراً ما يلازمه كيف اختفى اليوم. سيأتي اليوم الذي يتخلّص فيه منه. وما دام لا يظهر في مثل هذه الأوقات فهي سبيل الشفاء من القتل. لم يقتل!، من الشعور بالإثم! لم يأثم. كاد يبكي متوسّلاً أن يرى فرح!!

أتت البنت نحوه عارية، لكنّ الحزن كسا وجهها بشكل مفاجىء. كانت دمعة في عينيها. هل تفعل ذلك لأوّل مرّة؟ هل تفعل ذلك لتفوز بالعمل. لتأكل. لكنّها تبدو مجرّبة جدّاً. جلست جواره ونظرت إليه.

ـ ساعات أتمنّى أقتل خالي.

ـ..........................

ـ وساعات أريد أن أشكره.

ـ ولماذا تريدين أن تقتليه.

ـ هو الذي اغتصبني. خالي سياسيّ كبير. هو يقول ذلك. أمي كانت تقول عنه ذلك. لكنّ عمري ما رأيت صورته في جرنال أو مجلة.

ـ ولماذا تركتِه يفعل ذلك؟

ـ أتى مرة ليختبىء في بيتنا من المباحث. كانت المباحث تطارده دائماً. نحن نعيش في غرفة واحدة أنا وأمي وخمس أخوات. أبي ينام في الكراج الذي يعمل فيه. أمّي قالت هذا خالكم يا أولاد ليس غريباً.. سينام وسطكم على الأرض. نام جواري. في منتصف الليل أحسست بشيء ثقيل بين فخذي. كانت يده رماها عليّ. قلت ربما غصباً عنه. بعد لحظة سخنت يده وسخنت أنا. بدأ يهرش لي بأصبعه. قلت لنفسي يعني ح يعمل إيه؟ هذا مجرَّد إصبع وأنا لابسه كيلوت ضيِّق وجديد. تركته. لحظات وبدأت فخذاي تبتعدان عن بعضهما، شعرت أنَّ جسمي كلُّه يصرخ وأريد أن أشدَّه فوقي. هو لم ينتظر. رفع جلابيتي وبرك فوقي. أنا كنت سخسخت. كتم نفسي بيده حتّى لا أصرخ. وأنا كنت أريد أن أصرخ، ليس رعباً ولا رفضاً، لكنّ من النار اللّذيذة التي تدور داخل جسمي. عَمِل عَمْلته ومسحني بمنديل ورق طلّعه من جيبه.

ـ ألم ينتبه أحد من أخوتك.

ـ قلت لك كتم نَفَسي وأخواتي شغّيلة في المحلات شقيانين، نايمين ميتين وأمّي شقيانة من الخدمة في البيوت.

مدّ ذراعه يحتضنها. بدت صغيرة جدًّا تحت ذراعه. كيف حقًّا نام فوقها وهي صغيرة بهذا الحجم. النساء مهما بدَوْن أصغر

من الرجال، فعند الجنس يحتوين الرجال، يصير الرجال أقزامًا في أحضانهنَّ.

ـ ماذا فعلت بعد ذلك؟

ـ لا شيء. خالي تعوَّد. هربان أو غير هربان من المباحث كان يأتي ينام عندنا. اشترى لي شريط منع الحمل.

قال في دهشة شديدة:

ـ لهذه الدرجة؟

ـ وأكثر. لو تعرف الثاني تستغرب ولن تصدق.

ـ من؟

ـ أبي..

ـ مستحيل!.

سكتت ونظرت إليه طويلاً.

ـ أين كنت قبل اليوم؟

ـ في دولة عربية. لكن لماذا السؤال؟

ـ معك حقّ أن لا تصدِّقني. الدول العربية لا ينام فيها كلّ عشرة أو حتّى خمسة في غرفة. أنا على استعداد أعرّفك على بنات كتير باظت من أهاليها. وأنت أكيد قرأت عن الجزار الذي نام مع بناته الأربعة.

ـ فعلاً. قرأت في الخارج عن الحادثة.

ـ بعد أبي.. جاء دور أخي الكبير.

كيف يتخلص من هذه الكارثة التي انفجرت أمامه. سيعطيها خمسين جنيهًا، ويطلب منها أن لا تأتي.

ـ ما رأيك تساعدني وتقدِّمني لأصحابك العرب!

ابتسم مندهشًا.

ـ أنا ليس لي أصحاب عرب.

ـ لقد قلت إنَّك كنت في بلد عربيّ.

سكت لحظة مرتبكًا، ثم قال:

ـ طيِّب. إن شاء اللَّه سأفعل ذلك.

ـ وأصحابك يقدِّموني لأصحابهم.

ثم أضافت بسعادة:

ـ ياه. هكذا أشتهر في كلّ البلاد.

ضحك بشراسة. ونظرت إليه مندهشة، ثم قالت:

ـ لماذا فتحت هذا المكتب؟

ـ أنا كاتب وأريدك أن تكتبي لي قصصي ومقالاتي..

ـ لو قدَّمتني لأصحابك أكتب لك أحسن كتابة.

عاد يضحك وعادت تتكلَّم.

ـ أصله أنا نفسي أشتغل كده ولا أعرف الطريقة. خائفة. أنت تشجِّعني وينوبك من الحبّ جانب. وعلى فكرة أنا أقدر أقدِّم لك بنات أبكاراً بختم ربّها تدخل عليها بنفسك.

ـ أنت شيطانة حقيقيَّة، ولا يبدو عليك ذلك أبداً.

هزَّت رأسها..

ـ ومن الذي يبدو عليه أيّ شيء. عندك خالي يتكلَّم عن الحرية والعدالة ثم يغتصبني. لكن والنبي باحبّه...

ابتسم.

ـ لذلك تريدين أن تشكريه؟

ـ عرَّفْني حاجة حلوة. ثم أنَّه لا أحد يتزوَّج الآن إلاّ بعد الأربعين وساعات الخمسين.

نسي رغبته في التخلُّص منها. بدت ساذجة فقيرة. أعطاها مائة جنيه. هتفت:

ـ مرتَّب شهر؟

ـ لا. اليوم فقط.

تعلَّقت بعنقه تقبِّله.

ـ طيِّب إِيه رأيك تنام معايا تاني؟

ـ لماذا؟

ـ علشان تبقى فلوسي حلال..

ضحك لحظات طويلة، وظلّ يضحك وهو عارٍ، ويفكِّر في هذه الشيزوفرينيا الشائعة عند العاهرات، بينما هي ترتدي ملابسها ثم انطلقت في ضحكة مبهجة وهي تحملق فيه، وقالت:

ـ شيء غريب..

ـ ما هو الغريب؟

ـ عندنا في الحيّ واحدة ولدت الأسبوع الماضي!

اندهش وابتسم.

ـ وماذا في ذلك كلّ النساء تلد؟

ـ لكن هذه ولدت جحشًا..

حملق فيها في غاية الاندهاش. فواصلت:

ـ طبعًا.. لن تصدِّق!

ـ أنا ممكن أصدِّق كلّ شيء لكن هذا صعب..

ـ ولدت جحشًا حقيقيًّا صغيراً وله أربع أرجل. تفتكر تكون نامت مع حمار؟

ضحك وجلجلت ضحكته.

ـ شكلك لا تصدِّقني!

ـ أصدِّقك.

ـ أراك على خير.

وخرجت على أن تأتي في الغد، وعاد هو يضحك حتّى أحسّ بتعب شديد. خاف على نفسه بحقّ. كيف نسي أنّه خارج من المستشفى بعد شهر من العلاج الذي أعاده إلى الحياة. تمدَّد على المقعد الفوتيل واسترخى.

. . . . . . . . . . .

«يا إلهي، لماذا أكاد أفقد الوعي» ـ تساءل في نفسه. أتاه الصوت العجيب لفرح.

ـ إنّك بعدُ لم تر. المهمّ أن تتحمَّل. ثم رآه يضحك مبتهجًا في أرجاء الصالة.

. . . . . . . . . . .

## ـ ٤ ـ

« سالم سليمان ظهر في البلاد » .

« يتردَّد بشدَّة وجود الكاتب سالم سليمان في العاصمة . كان سالم قد اختفى منذ سنوات بعد زيارته لإحدى الدول العربية . قيل إنَّه قتل وقيل إنَّه مات، وفي كلّ الحالات لم تظهر جثته . كاتبة شابة قالت إنَّها رأته وأكَّدت أنَّها أمضت معه وقتًا طيبًا » .

ألقى بالصحيفة على الأرض ووقف غاضبًا . لقد نشرت فتاة البواسير الخبر وجعلته يصل إلى الصحف . لم يكن يدور بذهنه أنَّه سيصبح بسرعة محل اهتمام الناس . وهو لا يستطيع أن يعلن أنَّه سالم . . هو لا يرى وجهه إلاّ وجد راشد رشاد . يتآمر عليه الجميع أم يتآمر هو على نفسه؟ . . أيكون سالم بالفعل! وراشد رشاد هو الذي اختفى؟

لكنَّه يتذكَّر اللقاء الأخير بينهما، حين حدَّثه سالم بين الجبال الخضراء عن خيرات الجبال الخضراء، عن ينابيع المياه التي لم تتوقَّف منذ مرَّ عليها اليونان، عن الكهوف التي يعيش فيها النحل منذ آلاف السنين، عن عسل النحل النادر الذي لا يصل إليه أحد، عن التين والأعناب والزيتون التي لها طعم العسل والتي حرَّم الحاكم على الناس جمعها فراحت الأشجار من يومها تبكي مثل أمّ ينزل لبنها حنيناً لطفلها الضائع. وتذكَّر كيف طاف به في الثنايا وبين التلال حتّى وقفا فوق الكوبري المعلَّق منذ الحرب العالمية الثانية. «أنا الذي أخذته في هذه الجولة في الحقيقة. أنا الذي كنت أعمل هناك وكان هو مجرَّد زائر. زائر للمرَّة الأخيرة. زائر شريد ترك موطنه الأصليّ بلا سبب معروف، وراحت تحمله الريح من بلد إلى بلد .من يومها وصوتي هو صوته الأنثويّ» .. من يومها وفرح يمشي معه. فرح أو الشيطان! فلا فرق يا راشد.... و أخذ طريقه إلى البار، لفتاة البواسير، ليحذِّرها من الحديث عنه في أيّ مكان.

..........

ما إن هلَّ بطلعته حتّى نادته فتاة البواسير في شغف. لاحظ أنّ صاحب الشيء يجلس بعيداً لا يظهر منه شيءٌ، وأنّ المغنِّي يأكل ويشرب ولا يغنِّي، وأنَّه إلى المنضدة معها جلس رجل في حوالى الخمسين، له ذقن خفيفة تستدير حول وجهه

المستـــدير، ورجل آخـر في حـوالى الأربعين. الذي فـي حـوالى الخمسين لم يبدُ له مصريًّا، والرجل الأربعينيّ يحمل وجهًا مألوفًا لكنَّه لا يتذكّره.

وقف الرجلان يصافحانه. بدا له الرجل الخمسينيّ حزينًا معذَّبًا، بادره بالقول:

ـ لم أكن أتصوَّر أن أراك بسرعة يا أستاذنا. الحمد للّه الذي وضع هذه الفتاة في طريقي لتطلب منّي أن أنتظرك.

لم تكن فتاة البواسير قد وقفت مثلهما. قالت تشير إليهما:

ـ أسعد سعيد كاتب السيناريو المعروف، وبو علي وزير سابق.

رأى فرح يجلس فوق رأس بو علي يضحك، فارتبك. كان يريد أن يسأل الرجل الخمسينيّ، بو علي، كيف حقًّا يناديه هو أيضًا بسالم سليمان، في الوقت الذي فكَّر أنَّه لا يعرف ولم يسمع عن كاتب سيناريو باسم أسعد سعيد، لكن فرح أربكه تمامًا...

استطاع بعد تردُّد أن يتكلَّم.. سأل بو علي:

ـ هل سبق لك معرفتي؟

ـ وهل يخفى القمر يا أستاذ. من في العالم العربيّ لا يعرف سالم سليمان كاتب المقالات الحرّ وصاحب الرسائل الجريئة والروائيّ الفذّ. بلادنا كلُّها تقرأك حتّى الآن. حتّى أيام الخلاف بين دولتينا كنّا نقوم بتهريب الصحف التي تكتب فيها.

سكتوا جميعًا لحظات. لاحظ سالم أنَّ صاحب الشيء يتابعهم بعينيه باهتمام، وفكَّر أنَّه قد يطلق أيره على الجميع الآن. هذه حقًّا لحظة مناسبة، لكن بو علي قال:

ـ لكنَّك اختفيت كثيراً يا سيدي.

نظر راشد إليه بحدَّة، وتساءل:

ـ ماذا تريد بالضبط؟

ـ أن تسمعني. خذني إلى مكان بعيد هادئ. أنت الذي ستنقذني وتنقذ وطني.

فكَّر قليلاً، ثم قال:

ـ ولماذا لا تحكي أمام الجميع.

ـ إنَّها قضية لا يُدرك أبعادها إلاّ كاتبٌ مثلك عركته الحياة.

قال أسعد سعيد كاتب السيناريو:

ـ أنا أيضًا عرفت بظهورك فجئت لتسمعني..

وتقدَّم إليهم صاحب الشيء يحمل مقعده، ليجلس جوارهم ويقول:

ـ أنا أولى بكم أن يسمعني الأستاذ..

وهنا هتفت فتاة البواسير في صاحب الشيء:

ـ حكايتك كتبها أسعد سعيد وتقدَّم بها إلى التليفزيون لتحويلها إلى سهرة، لكنَّها رفضت. رفضتها الرقابة.

قال صاحب الشيء:

ـ لكن لابدّ أن يسمعني الأستاذ. أسعد كاتب فاشل.

ابتسم راشد رشاد مندهشًا من هذا الموقف العجيب، الذي زاد في غرابته قول أسعد.

ـ أنا يا أستاذ منذ رحيلك مطرود من جنة التليفزيون بسبب محاولتي تحويل إحدى قصصك العجائبية إلى فيلم تلفزيونيّ. قصّة الحاكم الذي ظلّ يخطب في الشعب ثلاثة أيام كاملة تحوَّل الشعب بعدها إلى أعمدة بيضاء من الملح.

هتفت فتاة البواسير:

ـ اللَّه أكبر. لدينا إذن ثلاث قصص. قصّة بو علي وقصّة صاحب الشيء وقصّتك العجيبة يا أستاذ.. ثم حدَّثت بو علي ـ سيادة الوزير السابق، لماذا لا تحكي قصَّتك أمامنا ليقوم أسعد

بتحويلها إلى فيلم؟ قد توافق عليه الرقابة وتنتهي عقدته مع التليفزيون.

هزّ بو علي رأسه في يأس، وقال في هدوء:

ـ يا ست أنا ما جئت لأحكي إلاّ للسيِّد سالم. إذا لم يأخذني السيِّد سالم إلى مكان هادىء بعيداً عنكم، سأشرب معكم زجاجة بيرة وأمضي.

رأى راشد في وجه الرجل الأحمر كثيراً من الذلَّة والانكسار. رجل في هذا العمر وغريب جاء خصّيصًا ليراه، لا يمكن أن يهذي. ثم أنَّه غير مرتاح لانضمام صاحب الشيء إليهم، كما أنَّه لا يعرف شيئًا عن القصّة العجيبة التي ينسبها إليه أسعد سعيد. الأفضل أن يبتعد عن هذا الموقف الذي لا يشي بغير الجنون. وقف.

ـ هيا معي يا سيِّدي إلى البيت!

ـ اللَّه أكبر! هذا ما كنت أنتظره.

هكذا قال بو علي وهو يقف منتشيًا سعيداً.

ولاحظ أن فرح عاد يقف فوق رأسه يضحك ويصفِّق...

...........

ـ بلادنا جميلة يا أستاذ، لكن أفسدها الحكّام..

قال بو علي ذلك وهو يتناول فنجان القهوة الذي أعدَّه راشد له.

ـ أرجوك أنا لا أحبّ السياسة.

ابتسم بو علي وقال:

ـ ومن تحدَّث في السياسة؟ أصبر. أنا سأحدِّثك عن الموسيقى...

شملهما الصمت لحظات وهما يحتسيان القهوة. ما إن وضع الرجل فنجانه على المنضدة الصغيرة التي تتوسَّط المقاعد حتّى قال:

ـ الحاكم في بلادنا كلّ شيء والناس جزم!

وبسرعة أضاف:

ـ لا تقاطعني. لا يذهب فكرك بعيداً. سأدخل بسرعة إلى الموسيقى.

تنهَّد راشد في استسلام واستمرَّ الرجل في الكلام.

ـ حاكمنا ترك الناس تفعل ما تشاء، تبيع، تشترى، تزرع، تصنِّع، تتعلَّم، تسرق، تتاجر، ما تشاء. حتّى الأحزاب أطلق حرية تكوينها فبلغت المائة، لكنَّه طلب من الشعب أن يعطيه شيئًا واحداً. أن يضع بنفسه قوانين النكاح. لقد كان أمراً

مضحكًا، ورآه الشعب بسيطًا وتافهًا، وتمّ وضع دستور جديد للبلاد، أُولى موادِّه: النكاح نشاط يحدِّد زعيم البلاد قوانينه.

قاطع رشاد بو علي ساخراً:

ـ هل أنت وزير سابق حقًّا؟

ـ هل تشكّ فيما قلته لك قبل أن أشرب القهوة.

ـ لا. إنّ شكلك يقول إنَّك بالفعل من بلاد الشمال، وكذلك لكنتك، لكن هذا كلام خرف.. أنا لا أصدِّق أبداً أنَّك أتيت معي لتهرف بهذا الكلام..

إبتسم الرجل، وقال:

ـ لو تجمَّلت قليلاً بالصبر. أرجوك. لقد ظنّ الشعب في البداية أنّ الحاكم وهو يطلب أن يكون النكاح في يده رجل فحل، يريد أن يحقِّق فحولته في الناس، ولَمَّا كان الناس كثيرين جدًّا، توقَّعوا أنَّه لن يستمرّ، قد يزهق أو يموت، أو أنَّ الأمر كلّه نكتة، ومن ثم فإنَّ هذه المادّة الدستوريّة ستكون مثل كثير من المواد المعطَّلة، لكن ما إن أقرَّ الشعب الدستور حتّى أفصح الحاكم عن مراده، فجعل البيوت كلّها موصلة بشبكة اتِّصالات رهيبة وكاميرات سحريّة مثبَّتة في جميع الغرف، بحيث لا يجامع رجل زوجته أو حتّى عشيقته إلاّ وعين الحاكم فوقهما، ولا تغنَّج امرأة ولا يتهتَّك رجل إلاّ وإذن الحاكم فوقهما. لا تحسبني مجنونًا.

إنتظر.. فإنَّ ما تراه هزلاً صار هو الجدّ بعينه، إذ إنَّه فجأةً أمر الرجال أن ينكحوا زوجاتهم في صمت، فهو لا يحبّ أصوات الرجال. لابدّ أنَّك الآن بدأت تنشغل عن حديثي بذهنك في شيء آخر، وستعطيني بعض الوقت حتّى أنتهي وأمضي، ليكن. لكنّ القصّة لابدّ أن تتمّ، وعند نهايتها إفعل بي ما تشاء.

ـ أكمل..

قال في استسلام، وبدا عليه شيء من الملل فأسرع الرجل في الكلام..

ـ صار الرجال ينكحون نساءهم بلا نفس، يقفزون فوقهم بسرعة، وينزلون عنهنَّ بسرعة وينامون بسرعة، فقرر الحاكم أن يقتل كلّ من ينتهي قبل نصف ساعة من الإيلاج. هل تعرف كم قتل؟ قتل ربع سكان البلاد من الرجال. وكلَّما ازداد القتلى ازداد الخوف، وكلّما ازداد الخوف تسارع القذف. وكان رجال الحاكم يضحكون كلّما تدحرج رأس رجل ثبت أنَّه ينهي نكاحه بسرعة فتباطأ الناس وصار الرجال ينامون فوق أزواجهنَّ، وكره الجميع المعاشرة وابتعدوا عنها، فصارت بلادنا جافة مات فيها الزرع ونفقت فيها الحيوانات ونشفت جلود النساء وتشقَّقت وذبل الرجال. بلادنا الخضراء غزيرة المطر والمياه. كلّ شيء في بلادنا تصحَّر الآن.

اختنق الرجل وانتحب بلا صوت، ووقف مادًا يده يصافحه متهيّئًا للانصراف.

ـ لماذا لا تكمّل حكايتك؟

ـ أنت لا تستمع إليّ. لم تعد سالم سليمان الذي قرأناه. سأبحث عن مسجد أمضي فيه بقية عمري. لقد ضعت وضاعت منّي البلاد.

وانصرف.. بينما راشد يجلس في دهشة من هذا الذي كان يصّر أن يحكي له حكايته. كيف قرّر فجأة الانقطاع عن الكلام. ورأى فرح في ركن الصالة ينظر إليه ويهزّ كتفه فاردًا ذراعيه مبديًا بدوره عدم الفهم، ثم أسرع خارجًا من الباب.

..........

أخرج من الثلاّجة زجاجة الويسكي. صبّ كأسًا وأخرج الكرّاسة، التي بها تليفونات البنات وعناوينهنّ. لم ينتبه إلى أنّه بالليل. اتّصل بأوّل فتاة:

ـ آلو. أريد الآنسة غادة من فضلك؟

ـ أيّ غادة. لدينا ثلاث غادات. واحدة شاذّة والثانية طبيعية والثالثة تحبّ فقط الكلام!

لقد اتّصل ببيت دعارة فيما يبدو. طلب الرقم التالي.

ـ هل ممكن التحدُّث مع الآنسة مَرْوة؟

ـ آسف. عندها ميعاد مع زبون في الشيراتون. ممكن تطلبها بعد ساعة.

ما هي حكاية بيوت الدعارة اليوم. أيكون يهذي؟ أيكون هذا كلّه بسبب عدم إنصاته باهتمام لبو علي. الثالثة ثابتة يا أولاد الكلب. طلب الرقم الثالث.

ـ من فضلك أريد الآنسة نور.

ـ خلاص ضلّمت. البوليس قبض عليها. عندها إيدز. تقدر تشوفها في المستشفى الأميركيّ...

ترك السمّاعة تسقط من يده، وقام يمشي خارجًا من المكتب. في الشارع تدفَّقت فيه القوَّة التي جعلته يمشي بلا قدرة على التوقُّف. صار صوت ضاحك بين السماء والأرض يسري أمامه. إنَّه صوت فرح المميز لا يخطئه، رأى الناس تتدفَّق في جلابيب بيضاء ولحى طويلة يسرعون، ولا يبدو الواحد منهم مدركًا لوجود الآخرين، ثم ابتلعتهم أزقّة لم يفطن لوجودها من قبل، سرعان ما انغلقت بأبواب حديدية عالية، أبواب قلاع قديمة.

تلفَّت خلفه ليرى العمارة التي استأجر فيها مكتبه، يعرف أنَّه لم يبتعد كثيراً، فكيف تغيَّر المكان على هذا النحو، ورأى

العمارة في مكانها. هو إذن لم يفقد عقله بعد، لكنَّه لا يستطيع العودة، فصوت فرح صار جميلاً يشدُّه بقوَّة، ولمّا وضع يديه على أذنيه ازداد الصوت، سكن أذنيه تمامًا، والقوة التي تدفَّقت فيه ليمشي بلا انقطاع ازدادت الآن، فصار يجري، وعبر شريط سكّة حديد ظهر فجأة أمامه، وراح يخوض بين بيوت واطئة ونفايات وجثث حيوانات اختلطت بها بعد قليل جثث رجال وأطفال ونساء، تُركت كثيراً في الشمس والرطوبة فتفجّرت بطونها وحطَّت عليها أسراب الذباب. كيف يرى ذلك كلّه والوقت ليل ولا أضواء من أيّ ناحية، يا إلهي، إنَّه النور ينسكب من السماء. إنَّه النهار قد أسرع بالحضور، ثم انتهى كلّ شيء إلى خلاء صحراء وليل ونجوم تنتشر في السماء وقمر بدر. كيف ظهر النهار وكيف اختفى. هل حقًّا انشقَّ الليل عن النهار ولو للحظة أم هو النهار الذي انشقَّ عن الليل الآن. كم مضى من الوقت منذ التقيت بالرجل الغريب، أبو علي؟ هل كان لعنة تلبس ثوب البشر؟ الأفضل أن يستريح، إنَّه متعب بحقّ.

جذبته الرمال الطريّة فجلس، تمدَّد واستراح إلى برودتها. أغمض عينيه وأغفى، ما أجمل النوم حين يكون سهلاً.. يمكن الآن لكلب ضالّ أن ينهشني، ويمكن الآن لذئب جائع أن يأكلني.. لكنَّه نام. هذا مكان رائع جدير أن يحلم فيه الإنسان...

..........

لم يكن حلماً أيُّها الكاتب. سأتدخَّل أنا الآن وأنقذك. لا يمكن أن تكون على كلّ هذه الدراية بما يحدث، ثم إنّني لا أحبّ لك أن تكذب. وأيضاً لماذا لا تتركني أكتب نفسي؟ ما الفرق بيني وبينك؟ كلانا كاتب. ثم إنَّني لا أحبُّك منذ رأيتك مع سالم، هل تذكر؟ كنت أنا أقرأ لكما ما كتبت، وأنتما تتحدَّثان عن امرأة تشاركتما في نكاحها في وقت واحد كلّ من ناحية...

لم يأتني حلم واحد في هذا المكان الذي تراه جديراً بتدفُّق الأحلام. جاءني جمل فوقه جمّال حملني فوق الجمل! أنزلني أمام بوّابة سور من سلك شائك تشتعل فيه النار بلا انطفاء. أدخل من هنا بسلام.. قال الجنديّ الأحمر الذي كان أيضاً مشتعلاً بالنار مثل السلك، إختر شيئاً واحداً تتفرَّج عليه. قلت إختر لي أنت أيُّها الرجل المشتعل فأنا غريب. قال جنيت على نفسك يا غريب. فكَّرت أتراجع وأختار بنفسي، ضاع صوتي في حلقي، ورأيتُ فرح فوق رأس الجنديّ المشتعل يضحك وهو غارق في الماء، فمشيت والخوف يأخذ بيدي!

رجل أسود شديد السواد دخل في إسته سيخ حديديّ خرج من فمه، وهو لا يني يلوِّح بيديه من الألم.. بينما اثنان من الزبانية الضخام يمسكان بالسيخ من الناحيتين ويشويان الرجل على النار، ينزّ جلده شحماً فيزداد إشتعال النار تحته،

وكلما بدا أنَّ الجلد قد زال والشحم أيضًا وأوشكت النار تطول العظام عاد الشحم إلى مكانه، وعاد الجلد وعاد الصراخ وعاد الألم! ولمّا كاد يُغشى عليّ وقف فرح اللعين أمامي بابتهاج طفولي مدهش، ممّا أشاع في روحي البهجة. أجل. البهجة نفسها فمشيت لأرى رجلاً آخر، أحمر هذه المرّة، يرتدي نظارّة من حديد مشتعل ومربوط إلى حائط مشتعل. عرفته على الفور، فشغلتني معرفته عن تعذيبه. هو الذي يحبّ أن يأتي بزوجات المعارضين فيأمر أن يضربن بالنعال حتّى الموت، وسعيدات الحظّ منهنَّ يطلق عليهنَّ الجنود والضبّاط المصابين بالسيدا.. ورأفة بغير المعارضين يطلق على زوجاتهم الضبّاط والجنود المصابين بالإيدز!

وهكذا فرّ الجميع إلى البلاد المجاورة، التي لم يكن حظُّها بأحسن من حظّ بلدهم، فضاع أكثرهم بين الحدود. يا إلهي. لم أعد قادرًا على التحمُّل، ولم تعد ضحكات فرح الطفولية تغريني بالتقدُّم، لكنّ ضحكة جبارة هزّت الهواء الراكد فنظرت يميني حيث مصدر الضحكة، فرأيت الرجل، الذي اعتبر نفسه الأول والآخر، البداية والنهاية، مشبوحًا على حائط قصير، مشدودًا عليه، يرتخي نصفه العلويّ أمامي ويبدِّل بذراعيه في الهواء وهو لا ينقطع عن الضحك والابتهاج. أخذني فرح الذي قفز إلى جواري من يدي وجرَّنا لنستدير ونرى نصف الرجل الخلفيّ

خلف الحائط. وجدت طابوراً من القرود الحمراء والخضراء والزرقاء الصغيرة تقف طابوراً وتعمل فيه على التوالي، وكلّما بدا أنّه أوشك على الموت توقّفت القرود حتّى تعود إليه عافيته فتعود تعمل فيه من جديد، وكانت رائحة نتنة تملأ الفضاء تطلقها القرود. هكذا أدركت فصرخت وجريت إلى رائحة الماء، وكان هناك نهر يرسل هذه الرائحة، إلاّ أنّ خراطيم رفيعة كانت تخرج منه. عشرات الخراطيم، كلُّها موصلة بطلمبات في الماء وتنتهي على الشاطىء إلى أفواه عدد كبير من الرجال النائمين وتخرج مرّة أخرى من أدبارهم لتعود وتنزل إلى النهر. جاءني صوت عريض يقول: لا تجزع. هؤلاء هم الذين تحدّثوا كثيراً عن الماء والزرع والنماء، ثم جفّفوا ينابيع المياه في الجبال حتّى لا يجد الثوار ملاجىء لهم، وهؤلاء هم الذين أحرقوا الزرع في الأرض والأشجار حتّى لا يختبىء من الثوار أحد. كان أكثرهم انتفاخاً بالماء يتوسّطهم، فتقدّمت إليه وهتف فرح «الرجل الأوحد» وصفّق بيديه. وتذكّرت كيف كان الرجل يأمر أن يؤتى إليه كلّ ليلة بفتاة بكر، فلمّا انتهت الفتيات الأبكار أمر الأطباء بترقيع الفتيات بأغشية بكارة، تستنسخها شركة دواء سويسرية بأسعار خرافية، وطلب أن يكون الأستنساخ من ملكة جمال أوكرانيا. لماذا أوكرانيا؟ قال لأنَّ الفتيات هناك لهنَّ جلود أرقّ من الشمع، من النسيم الخريفيّ، من ماء نبع وسط الجبال، والحقيقة كانت أنّ

أوكرانيا هي البلد الوحيد الذي زاره. كان مكروهًا في كلّ الدنيا ويخاف الاغتيال.

فجأة رأيت شابًّا يأتي مهرولاً حاملاً كتابًا هو ديوان شعر، ويجلس عند رأس الرجل يتلو عليه بسرعة منه، فصار المسكين يتألّم من ضغط الماء على بطنه ووزن الشعر على رأسه، وتأسّفت لأنّه كان شاعرًا في الحقيقة يملأ شعره ساعات البثّ التليفزيونيّ وفي الراديو. وهرول شاب آخر قادمًا يحمل كتب شعر كثيرة كلّها سبق وألّفها الرجل الذي صرخ: «إبعدوا عنّي الشعر وخلّوا الماء». وعلا صوت بكائه فأبكاني، ولمّا خفت أن يشدّهم بكائي بعيدًا عن بكائه فيخلطوا بيني وبينه، وأحلّ مكانه ويحلّ مكاني، وتذكّرت ما جرى لي إذ أحمل صوت سالم والناس تراني سالم رغم أنّي أحمل وجه راشد. جريت ورأسي يكاد ينفجر، لأنّني فكّرت أن أرى المأمور والضابط آكل العصافير هنا فيعرفاني. خفت فجأةً أن يكونا هما حرّاس المكان. والصوت الذي كان منذ قليل يشدّني إلى الأمام عاد يشدّني إلى الخلف، وتقافز حولي فرح يضحك عليّ من خوفي، هو الذي يحمل وجه سالم الجميل فعادت إليّ شجاعتي ومشيت ناحية الباب الذي سبق أن دخلت منه، وقرّرت أن أخرج قاتلاً أو مقتولاً من هذا الجحيم.

..........

لم يخرج. فقط أرجأ بقية الجحيم. لقد اشتدّ عوده في الكتابة، ولا يفاجئني خبثه. لقد تلبّسته روح سالم سليمان، ولم يكن سالم بالكاتب السهل. رحمة الله على الجميع!

عاد إلى بيته يرتجف، رغم أنَّ شيئًا من بهجة الكتابة كان يخالسه، إذ أظهر أشياء وأخفى أشياء، وإذ تعلَّم الشفقة بالقارئ، وإذ تذاكى في إقامة المعمار! وفي الشارع المفضي إلى البيت، تاقت نفسه لرؤية الرجال ذوي اللحى والجلابيب البيضاء الذين أغلقت عليهم الأزقّة. لا بدّ أنّهم يذهبون إلى الصلاة، ولن يضيره أن يذهب معهم. هذه المعاصي التي يرتكبها مع النساء ما كان عليه أن يرتكبها. ما رآه الليلة الماضية يدفعه إلى البكاء، وليس أطهر للنفس من البكاء بين يديّ اللّه. إذا لم تكن هناك شفاعة لأولئك الرجال.. فمن يشفع له هو الذي لا يشعر أحد بوجوده. وتناهى إليه صوت أم كلثوم من الفضاء، تائب تهمي دموعي ندمًا. سيغسل ذنوبه بالدمع الحارّ، وسيحبّ أعداءه، وسيرضى بما قسم اللّه له. ضياع أسرته قضاء وقدر، وضياع فلوسه حكمة إلهيّة، وحرّاس قسم الشرطة قدّيسون ونبلاء، والمجرمون يتعذَّبون في الدنيا لتخفّ كفّة ذنوبهم في الآخرة، ولمّا لم يجد الرجال البيض اغتمّ، لكنَّه قرَّر أن يبحث عن مسجد قريب، فما أكثر المساجد في البلاد! وفي فعل كوني لا يحدث إلاّ للمصطفِّين انزاحت كلّ البنايات من حوله، خاف من

العودة إلى الصحراء، وإلى الليل، لكنَّه رأى بناءً قديمًا جدرانه من حجر ضخم قديم حائل، جامع أثريّ ولا شيء آخر، كيف قام الجامع فجأةً أمامه وكيف أنَّه قديم أيضًا. لا يهمّ. المهمّ أن لا يعود إلى الوراء، لا يدخل الجامع فيجد نفسه في عصر آخر. لو حدث ذلك يتأكَّد أنَّه صار مجنونًا حقيقيًّا، ثم أنّه لا يحبّ أن يعيد الروايات القديمة، والذين يريدون فهم الحاضر بالعودة إلى الماضي في رواياتهم عاجزون عن تقديم روايات حقيقية. دخل المسجد على أطراف أصابعه. هل هو حقًّا مسجد؟ لم يتأكَّد بعد. على الأرض حصر قديمة بائسة ممزَّقة، وفي المواجهة منبر خشبيّ قديم أيضًا، يتقدَّم نحو المنبر ليتأكَّد من وجوده. هو اليوم وسط الخيال العظيم، ولاحظ فوق الجدران شباك عنكبوت، ولمّا وطأ الدرجة الخشبية الأولى للمنبر تهاوت تحت قدمه. تفتّتت. حاول أن يصعد الدرجة الثانية فتهاوت وتفتّتت أيضًا، لمس الدرابزين فانسحق تمامًا تحت أصابعه. تهاوى المنبر كلّه وصار رمادًا أسود. ولمّا كانت فوقه مئذنة تطلَّع إليها، فرآها تغادر مكانها وتصعد إلى السماء. كانت طيور تأتي من كلّ ناحية ترفعها على ظهورها وتمضي صاعدة. لا فائدة. ليس أمامه من طريق مفتوح إلاّ العصيان. رجل تفرّ المساجد منه ليس له باب للتوبة، هو المسكين الذي لم يرتكب آثامًا تساوي شيئًا قياسًا لمن عرفهم في حياته، أيّ قوّة جبّارة يحتاجها ليعيش. وهل لو تأكّد للناس أنّه لم يقتل

سالم سليمان ستتغيّر أحواله؟ لكن لابدّ أنّ هذا العقاب الألهيّ الكبير على ذنوبه الصغيرة، لأنّ اللّه يحبّه ولا يريده أن يستمرّ سادراً في الخطيئة. الذين يكرههم اللّه يترك لهم حبل الدنيا المجدول من الغوايات. هو إذن قدِّيس، أو مشروع قدِّيس، وأكثر من ذلك، مظلوم ومهان. وما جرى له الآن إشارة كي يعود إلى الطريق الصحيح..

مشى مطأطىء الرأس يلفّه الحزن. وفكَّر لحظة أنَّه لن يصل إلى بيته أبداً، لكنَّه رأى كيف لم يبتعد كثيراً عن البيت. ما إن فتح الباب حتّى سمع صوت ضحكات تأتي من الغرفة الداخلية. لو كان الرجل انضمّ إليّ سأقتله. ولا يهمّني حتّى أن اسمه بو علي. مثل هذا النوع يقابلك فجأةً في الطريق ليقلب لك حياتك. لكنّ الصوت أنثويّ. تعال. سمع ندائها. إنَّها الفتاة الرقيقة التي أحبَّت أن تعمل مومسًا مع السيّاح العرب. كانت عارية وكانت تضحك. ولما اقترب منها مدّت يدها تشدّه من بين فخذيه. من أين أتتها هذه القوّة التي جعلت قبضتها تؤلمه؟

ـ دعيني ليس بي رغبة اليوم.. وانتبه فجأةً ـ كيف دخلتِ إلى هنا؟

ضحكت.

ـ فرح هو الذي أدخلني.

ـ فرح. كيف عرفتِهِ؟

ـ وهل تظنّ أنّه يخصُّك وحدك.

و قبل أن تصل به الدهشة إلى غايتها، أردفت:

ـ إنَّه لطيف جدًّا. يصحبني إلى السيّاح العرب الذين تخفيهم عني.

وسمع ضحكات رفيعة في الصالة خلفه. لقد عاد فرح ووقف عاريًا. لاحظ أن له ذكرًا كبيرًا لا يتناسب مع حجمه. واقترب فرح منه وأزاحه بيده من ساقه، وقال:

ـ دعني أنا أعمل بدلاً منك اليوم.

ورأى الفتاة مبتهجة جدًّا وهي تنظر إلى فرح.

...........

# ـ ٥ ـ

ـ آلو !

ـ آلو .

ـ Parlez Vous Français?

ـ Non,

ـ Ah! then you speak English ?

ـ Non,

ـ أو . . هو هو هو . إذن أنت تتكلّم العربية فقط؟

ـ أرجوك، قل لي ماذا تريد لأنّي مزدحم جدًّا .

ـ مزدحم! هيء هيء هيء . . هل أنت باص عموميّ؟

ـ أشكرك على أدبك. مزدحم أعني مشغول. على السرير امرأة ملتهبة، وأوراقي كلّها مبعثرة على الأرض، والأدراج مفتوحة.. هل رأيت زحاماً أكثر من ذلك؟

أدرك فجأةً ـ والآخر يضحك على الناحية الأخرى من الخطٍّ ـ أنَّه لا يعرفه، وما كان له أن يسترسل معه في الحديث هكذا. سأله:

ـ قل لي لو سمحت من أنت؟

ـ أنا.. أنا جانيت.

ارتبك.

ـ فتاة حضرتك؟

ـ طبعًا. هل ترى شيئًا آخر؟

ـ صوتك خشن جدًّا.

ـ أشكرك بدوري على أدبك.

ـ معذرة. لقد تركتني أحدِّثك كرجل. شدي اعتذاري. والآن ماذا تريدين يا آنسة جانيت.

ـ حضرتك مدعو لحضور الحفل السنويّ لسفارتنا بمناسبة رحيل مسؤولة القسم الإعلاميّ. أنت تعرفها.. مدام تيريزا.

ـ مدام تيريزا؟!

تساءل وهو يفكِّر.

ـ أجل. إِنَّها صديقتك من زمان.

ـ طيّب. طيّب. كيف عرفتم عنواني الجديد وتليفوني؟

ـ يا أستاذ سالم خبر عودتك يملأ البلاد. وعنوانك وتليفونك تنشرهما الصحف كلّ يوم. الصحف تتبارى في حثّ الناس على إرسال مشاكلهم إليك، وتدعوك للعودة إلى تحرير بابك الصحفي الشهير «قلبي معك وعقلي عليك».

سكت لحظات، تمتم.. فتاة البواسير بنت الكلب لا تزال تنشر الأخبار.

سألته:

ـ هل تقول شيئًا؟

ـ لا.

لكنَّه اكتشف أنّ جانيت أغلقت الخط من قبل، وأنَّ التي تسأله هي الفتاة الملتهبة على السرير في الغرفة الداخلية، كانت قد نهضت من نومها وبدأت تلبس ملابسها على مهل. جرى إلى الكيلوت الذي بين يديها قبل أن تدخل قدميها فيه وخطفه منها. ابتسمت.

ـ غـريـب أمـرك . هـذا هو الكيـلوت العـاشـر الذي تـأخـذه منّي .

ابتسم . قال :

ـ هذا يعني أنَّك أمتعتيني أكثر ممّا كنت أتوقَّع . لم آخذ غير كيلوت واحد من كلّ بنت قبلك . .

سكتت متحيِّرة . هزّت رأسها وهي تدخل البنطلون في وسطها . فوقه ارتدت القميص والجاكيت القصير .

ـ هل آتي غداً؟

ـ كلّميني بالتليفون . سأخبرك ما إذا كنت أحتاجك أم لا .

قبّلته وخرجت . . .

وجد نفسه وحده ، فانكبّ جالساً على الأرض بين الأوراق المبعثرة والأدراج المفتوحة للمكتب الخشبيّ ، وراح يقلِّب فيها مثل مجنون .

. . . . . . . . . . .

الذي كتبه سالم من قبل عن تيريزا لم ينشره . هكذا أخبره وهما يمشيان بين ثنيات وتلال الجبل . هذه الأوراق التي يبحث فيها أوراقه هو وليست أوراق سالم ، لكنَّه لم يكتب كثيراً هكذا . هل تكون هي أوراق سالم انتقلت إليه يوماً ما . هو

يعرف تيريزا جيِّداً. هل عرفها قبل سالم؟ بعد سالم؟ كانا يتحدَّثان عنها معًا. يكرِّران الجُمل نفسها. القصة نفسها. من سمع القصّة من الآخر في البداية؟ من تلبّسته القصّة في النهاية؟ مؤكَّد أنَّ سالم كان دائماً يخدعه، كان يحوّل كلّ حكاياته التي يرويها له إلى قصص.. يصبح، هو سالم، مؤلِّفها. لكنَّه لم يدخل غرفة سالم في الفندق بعد اختفائه. إذن هو لم يأخذ منه ورقة واحدة. لكنَّه عاد بورق كثير من البلدة الصحراوية. فهل دخل غرفته ولا يدري الآن؟

استراح إلى الجدار بعد أن يئس من العثور على شيء مفيد.. تيريزا.. تيريزا. هل لا تزال تحتفظ بقوام سالومي .ريتا هيوارث الجميلة ماتت مجنونة بالزهايمر. القوام الفارع والخصر الدقيق لتيريزا، لسالومي، لريتا عينان من الغواية وشفتان من الشهوة. تيريزا كانت تتكلَّم العربية أحسن من أهلها. لكن، أحبُّها وهي تتكلَّم الفرنسية والإنكليزية والألمانية. كنت أحبُّها. إنَّها تتكلَّم الألمانية برقّة. كيف صارت ألمانيا يومًا ما بلداً نازيًّا؟ تيريزا رقيقة لكنَّها كثيراً ما وضعت السدود أمامي. تدعوني لبيتها ثم تقدِّم لي رجلاً ضخماً، وتقول زوجي. يذهب الرجل لينام مبكراً وتبتسم، وتقول عنه إنَّه طفل شرب الحليب وذهب إلى سريره. صورته الضخمة تظلّ أمامي. تمضي بقية السهرة، تضحك تيريزا وصورة الرجل الضخم أمامي. تقول لي انظر كيف

امتلأت أركان البيت كلّها بالزهور، كلّ هؤلاء عشّاقي، وترقص تيريزا بين الزهور وتقبّلني فتقفز صورة الرجل الضخم أمامي. كيف ينام كلّ هؤلاء العشّاق مع تيريزا؟ ألا تقفز أمامهم صورة الرجل الضخم؟ كيف حقًّا أنام مع تيريزا وفي الحجرة القريبة ينام الرجل الضخم الذي تقف صورته أمامي. آخر مرّة زرت فيها تيريزا كانت معها الممثّلة غير المشهورة التي كانت تأتيني أخبارها في الصحف وأنا خارج البلاد بعد ذلك. كانت أخبارها في كلّ الصحف. في الصفحات الأولى والأخيرة. كانت جميلة جدًّا لكنّي لم أقتنع بكونها ممثلة في أيّ فيلم شاركت فيه. همست تيريزا في أذني:

ـ إنّها تنام مع طوب الأرض، تستطيع أن تأخذ راحتك..

وتركتنا وذهبت تحضّر لنا كؤوس الويسكي. لم أكن أريد أن آخذ راحتي، كنت أريد أن تترجم لي تيريزا قصة وتنشرها في بلدها. لعله سالم هو الذي زار تيريزا وقالت له أن يأخذ راحته، لكنّي زرتها وطلبت أن تترجم لي قصّة، لعلّنا ذهبنا معًا، قالت له شيئًا وقالت لي شيئًا آخر. أنا أقرأ الآن ما كتبه سالم. لعلّه اختلط بما كتبته. رأسي سينفجر. لقد كانت الممثّلة جالسة في خجل التلميذات تفرك يديها وأصابعها، فمددت يدي وأمسكت بيدها. مالت بسرعة برأسها على كتفي، ولامس شعرها الناعم عنقي وشممت رائحة بصل! أنقذتني تيريزا

وعـادت بالـويسكـي. قـالـت للمـمـثِّلة: «خـدي بالك دا بتـاع نسوان»؛ والحقيـقة كانت واضحة، أن تنشر لي تيـريزا قصّة باللُّغة الأجنبية بعد أن ضاقت عليّ فرص النشر بالعربية.

لم يكن يقرأ ولا يكتب. تأكَّد له أنَّه يهـذي وهو مرتكن إلى الحائط. رأى فـرح يضحك في ركن بعيـد من الصـالة. كـان عاريًا تمامًا. ولاحظ أن آلتـه صارت صغيرةً جدًّا. آلة طفل حـقيقيّ وليس لأتان. فرح يعرف أنَّني سأموت ويشمت فيّ. لكنَّه لاحظ مظروفًـا ينزلق إلى الصـالة من تحت بـاب الشـقّـة المغلق. تناوله وفتحه. وجد فيه كـارت الدعوة التي حدّثته عنهـا جانيت. بهذه السرعة يقضي الأجانب أعـمالهم. وكان فرح لا يزال يضحك في الركن. هزّ هو رأسه ودخل الغرفة لينام؛ وبينمـا هو مستلق على السرير رأى من خلال البـاب المفتـوح فرح يغـادر الشقة عـاريًا من بابها المغلق، فأجهش في بكاء مرير.

...........

ـ تعال جنبي!

أفسحت له مكانًا جوارها على المقعد، وأردفت:

ـ أنا عارفة أنّك تريد أن تجلس إلى جواري من زمان.

وربّتت على فخذه بيدها اليسرى. إنّها الممثِّلة ذات الوجه الطفوليّ الجميل.. لا ينساها.

كانت جالسة كما رآها من زمان، في خجل التلميذات.. فقط ازدادت سمنة وبات على وجهها ذعر خفيف، ولا تهبّ منها رائحة البصل.

تيريزا تدور بين الضيوف مثل فراشة فرحانة، طويلة نحيلة القوام كما كانت. مؤسسة على عجز قويّ وساقين طويلتين وثدياها نافران مثل فتاة بكر.

كأنّه لم تمرّ عشر سنوات على تيريزا. تيريزا وحدها دون العالمين.

فرنسيّون وإنكليز وألمان وأميركان ويهود ومصريّون وعرب وكتّاب وصحفيّون ورؤساء تحرير، والجميع يقتربون من الممثّلة فتعطيهم يدها يقبّلونها باسمين. وأقبل من الشرفة طفل صغير، ارتبك راشد لمّا رآه إذ ظنّه فرح، لكنّ الطفل له وجه آخر، ارتمى في أحضان الممثّلة التي قالت «أخي الصغير»، وراحت تربّت على ظهره وهو دافن رأسه بين فخذيها، بينما لاتزال يدها التي ربّتت بها على فخذ راشد في مكانها على فخذه. كانت الحرارة قد شملت جسمه كلّه، وبدأت تيريزا فاصلاً من الرقص الشرقيّ على موسيقى يونانيّة. موسيقى ثيودور اكس الشهيرة في فيلم زوربا، واشتعل الحاضرون تصفيقًا.

هدأت الموسيقى وراحت سالومي تتهاوى على مقعد قريب منها والعرق يتفصّد على وجهها، فيلمع وجهها أكثر تحت ضوء الثريّا الكبيرة، وانفرد كلّ رجل بامرأة في جانب يتناجيان، ولم يبق جالسًا غيره والممثّلة التي صارت شهيرة وأخوها.

ـ أنا أعرف كلّ مكان في هذه الشقّة.

قالت الممثّلة فارتبك. قال:

ـ أنا أيضًا أعرفها جيّداً

أقبلت تيريزا نحوهما، وقالت:

ـ مكانكما محفوظ. لم يدخله أحد منذ عشر سنوات. منذ غيابك يا سالم يا حبيبي.

لا فائدة. لن يعرف أحد أنّه راشد أبداً. لن يعرف أحد بذلك. شيء ما في الكون يجعل الناس تناديه بذلك، وليس الجميع متآمرين عليه. لقد نظر في المرآة في الصباح وتأكّد له أنّه لا يحمل من سالم إلاّ صوته. إنّ صورته، هي صورة راشد رشاد لم تتغيَّر، لكن لا فائدة.. ثم قالت تيريزا:

ـ نحن نساعدها على الخروج من البلاد.

هزّ رأسه عاجزًا عن الفهم..

ـ إنّهـا حـكاية طويلة. يمكـن لهـا أن تحكيـهـا لـك في مكانكما القديم..

ابتـسم ووقف فـوقـفت الممـثّلة وأخـوها. مـشـوا في طرقـة طويلة أسلمتهـما إلى غرفة صغيرة. كان خائفًا. ماذا سيحدث لو وجد خلف باب الغرفة بابًا خلفه باب خلفه باب إلى ما لا نهاية. ماذا يحدث لو أسلمه الباب الأخير إلى الصحراء مرّة أخرى. إلى الجحيم الذي رآه من قبل. هذه الممثّلة تريد مغادرة البلاد. إنّه يشمّ رائحة سياسة في المكان وهو يكره السياسة. ثم إنّه غير قادر أن يرى أحدًا يتعذّب مرّة أخرى.

ـ مالك؟

سألته.. أجاب:

ـ لا شيء..

ـ أنت ترتعش!

ـ أبدًا. الحمد لله ليس للغرفة غير باب واحد.

ابتسمت مندهشة:

ـ وهل للغرفة دائمًا أكثر من باب؟

ـ أحيانًا.

هزّت حاجبيها إذ لم تفهم ماذا يقصد بالضبط. نظرت إلى الغرفة التي لم يكن فيها غير منضدة سوداء بيضاويّة بلا مقاعد ومرايا بلجيكية قديمة وسط أطر خشبية مذهَّبة على الجدران، وقالت:

ـ كما تركناها أوّل مرة.

لا يذكر أنّهما دخلاها معًا. تيريزا تهذي والممثّلة تهذي أيضًا. لكن لا بأس. ورانت منه نظرة إلى أخيها فقالت:

ـ لا تخشاه. إنّه يحبّ اللعب.

وابتسمت ابتسامتها الطريّة المتهافتة التي تكاد تقع بشفتيها على فم من يراها، وقالت:

ـ دائمًا كنت تأتيني مباشرة من الأمام. لم تحاول أن تراوغ مرّة.

كان يعرف أنّها تقصد بذلك طريقته في الكلام، وضوحه ومباشرته وذهابه إلى الهدف بسرعة. هكذا كان سالم سليمان حقًّا.. وفي لحظة أحسّ أنّه لا يريد أن يعرف قصّة هذه المرأة ولا لماذا تريد مغادرة البلاد. أمسكها من ذراعها وأدارها فاستدارت وهي تقول بهلع خفيف «مالك. ح تعمل إيه. أنا ما أقصدش كده، أنا عايزاك تسمعني. تساعدني».

لكنّه كان قد أمالها فوق المنضدة ثم ضغط بهدوء على قفاها بكفّه اليسرى فمالت أكثر، ولدهشته رأى أخاها يرفع فستانها إلى ظهرها..

ـ شكرًا لك، قال له مبتسمًا بينما راح الغلام يشدّ الكيلوت عن أخته فظهرت مؤخّرتها أمامه شديدة الاستدارة، خشنة قليلاً لكنّها تشعّ ضوءًا أبيض كانت سفن اللّذة تحمله إلى الفضاء على فرس مجنَّح تطير ثيابه حوله وخلفه وفوق رأسه مظلّة من العصافير ـ لا ليست العصافير، إنّه يخاف أن يظهر الضابط ـ مظلّة من الفراشات الملوّنة... إنّ ما يصعد منها ويمضي في أوردته الآن لسفن من الفرح المشتعل تخلعه عنها لتعيده فيها. فعلان متضادّان في وقت واحد، ذهاب وغياب، ظلام حوله ونور داخله، ماء ونار وهي تموء وتلوي وترغي وتبربر وتشخر وأخوها يقف قريبًا يضحك. وفي المرآة أمامه كانت عيناها مغلقتين، لكن ينسكب منهما الدمع وتعضّ شفتها السفلى وتفرد ذراعيها تمسك بالمنضدة من الناحيتين وتكاد المنضدة تتزحزح، ثم فجأةً انزاحت المنضدة من مكانها فكادت تصطدم بالمرآة أمامها من أثر ضغطه عليها، ومن أطرافه خرج الأذى والتعب اللذان في جسمه.

ـ مبسوط؟

قالت وهي لا تزال على وضعها، لكن تهدَّل شعرها حول رأسها وابتلّ بالعرق، وكان هو لا يزال فوقها رغم هموده.

ـ جدًّا.

ـ لقد نسيت القصّة.

ـ أي قصّة؟

ـ قصّتي.

ـ أنا أيضًا نسيت!

وشخرت الممثّلة شخرتين سكتت بعدهما. ماتت. تراجع مذهولاً إلى الباب وتجاوزه إلى الطرقة المفضية إلى الصالة. تناهى إليه صخبها وموسيقى هادئة. تيريزا ترقص في بطء وسحب دخّان السكائر والسيكار تملأ الفضاء فوق الرؤوس. ما إن رآه الجميع حتّى توقفوا وراحوا يضحكون ويشيرون إلى بنطلونه. انتبهت تيريزا وضحكت بقوّة. كان البنطلون نازلاً حتّى قدميه اقتربت تيريزا منه وانحنت ترفع له البنطلون وتغلق أزراره. امتدّت له يد بمنديل ورقيّ كبير. كانت يد الممثّلة. تناول منها المنديل غير مصدّق، ورأى أخاها لايزال واقفًا وجهه بين فخذيها وهي تربّت على ظهره بيدها اليسرى. إنّها لم تبرح مكانها بعد.. فمع من كان بالغرفة؟

ـ اقعد هنا جنبي حتّى أحكي لك قصّتي.

جلس كالمسحور، ودون أن يقصد، نظر ناحية باب الصالة فرأى الممثّلة تمر من أمامه في طريقها إلى باب الشقة الخارجيّ الذي فتحه لها فرح، ووقف جواره منتظراً خروجها وهو يضحك..

ـ هل تسمعني أم أرسلها إليك في خطاب؟

سكت قليلاً، وقال:

ـ تعالَ مرّة إلى البار.. برج العذراء. هناك تكتمل القصص.

...........

وقفت الممرِّضة لحظة مصدومة ثم انتبهت لرشاد والفتاة فصرخت فيهما. إنتو هنا ليه! ما تروّحوا اللّه يخرب بيوتكم، وأسرعت وجرّت التومرجيتان المرأة خلفهما على الأرض.

احتاجت وداد نصف ساعة حتّى تفوق من غشيتها.

مشيا. يحيط كتفيها بذراعه وهي تنتحب بصوت خفيض. وصلا إلى نهاية الطرقة فوجدا الدنيا ظلامًا في الخارج. لا أحد يقف ولا صوت في المستشفى من أيّ ناحية. للحظة فكّر أنّ الباب الخارجيّ الموصل للشارع قد يكون مغلقًا، لكنَّه كان مفتوحًا، كان حارسه هو رجل الأمن الذي رآه حين دخل، الصغير الحجم جدًّا ذو الوجه العجوز يهمّ بإغلاقه بجنزير سميك وقفل ضخم. رآهما فابتسم ابتسامته الطفولية..

ـ مع السلامة. لقد انتظرت خروجكما طويلاً!!

قال ذلك وهو يرفع يده بالتحية كالأطفال أيضًا.

كان الشارع أمام المستشفى واسعًا جدًّا، مضاءً بالنور إلى درجة غير عادية، والبيوت على الجانبين منخفضة موصدة أبوابها ونوافذها ولا أحد في الطريق. للحظة فكّر أن يقف ويستقلّ تاكسيًّا، ولعن نفسه إذ كره أن يستقلّ سيّارته، لكنّه فكّر أنّ يومًا كهذا لابدّ ينتهي نهاية سيِّئة حتّى ولو في تاكسي!!

إبراهيم عبد المجيد روائي مصري ـ صدرت له أكثر من عشر روايات ومجموعتان قصصيتان. ترجم العديد من رواياته إلى الفرنسية والألمانية والإنكليزية. حاز جائزة نجيب محفوظ عام ١٩٩٦ عن روايته البلدة الأخرى. كما فازت روايته لا أحد ينام في الاسكندرية بجائزة أفضل رواية في معرض القاهرة الدوليّ للكتاب عام ١٩٩٦.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب. ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

تصميم الغلاف: نجاح طاهر